رواية
كل الرجال مَرّوا من هنا
ليست قصة جسد...
إنها حكاية روح تبحث عن نفسها.
حين يصيح النجاة شكلاً من الحب

محمد الفاضل

رواية

كل الرجال مرّوا من هنا

محمد الفاضل

كل الرجال مرّوا من هنا

تأليف: محمد الفاضل

جميع الحقوق محفوظة © للمؤلف

هذا عمل أدبي من الخيال. الأسماء والشخصيات والأحداث نتاج خيال المؤلف، وأي تشابه مع أشخاص حقيقيين، أحياء أو أمواتًا، أو وقائع فعلية، هو محض صدفة.

إلى كل امرأة لا تزال تبحث عن الطريق إلى نفسها.

الفهرس

الجزء الأول · قبل أن أعرف معنى الخوف

الفصل الأول — الغرفة الزرقاء

الفصل الثاني — البحر

الفصل الثالث — الباب المغلق

الفصل الرابع — الصمت

الجزء الثاني · حين صار الخوف عادة

الفصل الخامس — أول قبلة

الفصل السادس — الجسد الآخر

الفصل السابع — المرآة المكسورة

الفصل الثامن — الهروب الأول

الجزء الثالث · حين اكتشفت أن الجسد عملة

الفصل التاسع — الوظيفة الأولى

الفصل العاشر — الاختيار الوهمي

الفصل الحادي عشر — الشقّة الصغيرة

الفصل الثاني عشر — لقاء في معرض

الفصل الثالث عشر — الهروب الثاني

الفصل الرابع عشر — المال والنسيان

الجزء الرابع · كل الرجال مرّوا من هنا

الفصل الخامس عشر — الكشف

الفصل السادس عشر — ثلاث سنوات من الانتظار

الفصل السابع عشر — المكالمة الأخيرة

الفصل الثامن عشر — زيارة الأم

الفصل التاسع عشر — حفل التخرّج

الفصل العشرون — المرآة الكبيرة

الجزء الخامس · أنا

الفصل الحادي والعشرون — الاسم

الفصل الثاني والعشرون — الصورة الأخيرة

الفصل الثالث والعشرون — الرسالة

الفصل الرابع والعشرون — النافذة

الفصل الأول

الغرفة الزرقاء

إذا كنتم تبحثون عن مذنبة، فسأوفّر عليكم الوقت. أنا هنا. لكن لا تعرفون بعد ماذا تتهمونني به.

في الليلة التي قررت فيها أن أتوقّف عن الهرب، استيقظت من كابوس. لا صور فيه، فقط لون. أزرق. لم يكن أزرق السماء الهادئ؛ كان أزرق الجدران في غرفة لا أريد أن أتذكّرها، لكن جسدي يفعل ذلك حتى بلا أوامري. يتذكّرها برودة مفاجئة، تسارع في النبض، رغبة بالاختفاء. صرت، بعد كل هذه السنوات، أكره أي أزرق: ملابس، سماء، عيون. كل أزرق يحمل معه صوت باب يُغلق.

جلست على حافة السرير في الثالثة صباحًا. ضوء الشارع رسم خطًّا أصفر باهتًا على الأرض. لم أكن أبكي — لم أعد أعرف كيف أبكي في الوقت المناسب. أبكي دائمًا متأخرة، على شيء آخر غير الذي يستحق البكاء. كنت أنظر إلى يديّ وأفكّر: ليست يديّ فعلًا، بل يدا امرأة تشبهني. امرأة أعيش في جسدها منذ التاسعة من عمري، دون استئذان.

نهضت وذهبت إلى المطبخ لأشرب الماء، لا لأنني عطشى، بل لأن الماء هو الشيء الوحيد الذي يعرف كيف يمرّ من يدي دون أن يترك أثرًا. غسلت وجهي. نظرت في المرآة الصغيرة فوق الحوض. لم أرَ نفسي. رأيت، كما أرى دائمًا، طفلة تقف خلف امرأة، تنظر من فوق كتفها، تنتظر أن أعترف بوجودها. لم أفعل. أغلقت الصنبور وعدت إلى الفراش، وتركت الطفلة هناك، في المرآة، كما أفعل كل مرة.

أنا مصوّرة. هذا ما أخبر به الناس حين يسألونني عن عملي، وهو صحيح تمامًا، وغير كافٍ تمامًا. أقضي أيامي أبحث عن وجوه غريبة في شوارع لا تعرفني، أطلب من أصحابها لحظة، ثم ألتقط ما تبقّى من حياتهم على وجوههم قبل أن يعرفوا أنني رأيته. مشروعي الأخير عنوانه «الوجوه المنسيّة». أحد الأصدقاء قال لي مازحًا إنني أصوّر الآخرين لأنني أخاف أن أُصوَّر. لم أضحك يومها. كان محقًّا، وهذا وحده كافٍ لئلّا أضحك.

في اليوم السابق لتلك الليلة، كنت في السوق القديم، أبحث عن وجه يستحقّ أن يُحفظ. وجدت بائعًا مسنًّا يبيع التوابل، يداه متشقّقتان من عقود العمل، وعيناه لا تزالان تحملان بريقًا لم يخبُ. طلبت لقطة، فوافق بابتسامة متعبة. حين رفعت الكاميرا، ولحظة قبل أن أضغط الزرّ، نظر إليّ مباشرة، لا إلى العدسة، بل إليّ أنا، خلفها، وقال: «أنتِ تخفين شيئًا، يا ابنتي.» لم أجب. التقطت الصورة، شكرته، وابتعدت أسرع ممّا ينبغي، وقلبي يخبط بقوة لم أفهم سببها في حينها. لم يكن العجوز يعرف شيئًا عنّي، بالطبع؛ كان فقط رجلًا اعتاد قراءة الوجوه من كثرة الجلوس خلف بسطته يراقب المارّة. لكنّ ملاحظته العابرة تركت فيّ أثرًا لم يغادرني طوال ذلك اليوم، وكأن أحدًا أخيرًا أشار إلى الشيء الذي أخفيه بإتقان منذ عقود.

اتصلت بي صديقتي «هالة» في المساء، كعادتها، لتتفقّد أحوالي، ولتخبرني عن يومها بتفاصيل لا أطلبها لكنني أحبّ الاستماع إليها، لأنها الشيء الأقرب إلى الحياة العادية التي أراقبها دائمًا من بعيد كمن تقف خلف زجاج. سألتني: «كيف حالك؟» أجبت بجملتي الجاهزة: «بخير، مشغولة قليلًا بالمشروع.» لم تُصرّ، كعادتها أيضًا؛ صداقتنا، منذ سنوات، مبنية على احترام متبادل لمساحات لا نسأل عنها. أحيانًا أتساءل إن كانت تعرف أكثر ممّا تظهر، وتختار أن تتركني أتكلّم حين أكون جاهزة، لا حين تُلحّ هي. أغلقت الهاتف وأنا أشعر بذلك الفراغ المألوف الذي يعقب كل مكالمة طبيعية، وكأن الطبيعي نفسه يذكّرني بكل ما ليس طبيعيًّا فيّ.

في صباح ذلك اليوم – اليوم الذي أتحدّث عنه، اليوم الذي بدأ فيه كل شيء يتّضح، أو ربما يتشوّش أكثر، لم أعد أفرّق بين الاثنين – كنت أرتّب صناديق الصور القديمة. أمي أرسلت لي بعضها بعد أن باعت بيت الطفولة أخيرًا. فتحت صندوقًا عشوائيًا، ووجدت صورة لي في التاسعة من عمري، على شاطئ لم أعرف أنني أذكره. كنت أضحك في الصورة. ضحكة حقيقية، غير مصطنعة، من النوع الذي لا أعرف كيف أصنعه الآن أمام الكاميرا رغم أنني أعمل خلفها كل يوم.

خلفي في الصورة، بعيدًا، هناك بيت صغير بنوافذ زرقاء. لم أنتبه إليه أول مرة. لكنني حين قرّبت الصورة من عينيّ، شعرت بشيء يهبط في داخلي، ببطء، كحجر يسقط في بئر عميقة، ولا أسمع له صوت ارتطام.

البحر، قبل ذلك الصيف، كان مجرد ماء. كنت أركض فيه بلا خوف، أدخل حتى ركبتيّ وأصرخ من البرد ومن الفرح معًا، وأمي تجلس على الرمل تحت مظلة صفراء، تراقبني دون أن تقلق، لأن العالم، في ذلك الوقت، لم يكن قد أرانا وجهه الآخر بعد. كان أخي الصغير يبني قلاعًا من الرمل، وكنت أهدمها، وكان يضحك بدل أن يبكي، لأنه كان يعرف أنني سأساعده على بنائها من جديد. كانت الأشياء، حينها، تُبنى وتُهدم وتُبنى، ولم يكن هناك شيء لا يمكن إصلاحه.

جلست على أرض غرفتي، والصورة بين يديّ، وسمحت لنفسي، للحظات، أن أعيش داخل تلك الصورة لا خارجها. تذكّرت رائحة الملح على جلدي بعد يوم كامل في الماء، وطعم البطيخ البارد الذي كانت أمي تقطّعه كل ظهيرة وتوزّعه علينا في أطباق بلاستيكية صفراء تشبه لون مظلتها. تذكّرت صوت أخي وهو يناديني من بعيد: «انظري! انظري ماذا بنيت!» وكيف كنت أركض نحوه، رملًا يتطاير من قدميّ، لأشاهد قلعة صغيرة يظنّها قصرًا. كانت تلك الأيام تشبه فيلمًا رأيته مرّة، بألوان زاهية أكثر ممّا تحتمله الذاكرة، وأنا الآن، من مسافة أربعة وعشرين عامًا، أنظر إليه وكأنني أراقب طفلة أخرى، غريبة، لا تشبهني إلا في ملامح الوجه.

لا أريد أن أتحدّث الآن عمّا حدث في ذلك البيت ذي النوافذ الزرقاء. ليس لأنني أخجل، رغم أنني خجلت طويلًا، بل لأن بعض الأشياء لا تُروى بالترتيب الذي حدثت فيه. تُروى كما تعود إلينا: مبعثرة، ناقصة، بلا بداية واضحة ولا نهاية. أعرف فقط أن هناك بابًا أُغلق، وأن الصوت الذي سمعته بعدها لم يكن صراخي، بل صمتي. صمت طويل، بدأ في ذلك الصيف ولم ينتهِ بعد، رغم أنني تعلّمت أن أتكلّم فوقه، أن أضحك من فوقه، أن أعيش حياة كاملة وأنا أحمله كحجر في جيبي، أشعر بثقله كل مرة أضع يدي في جيبي دون أن أنتبه.

لم أخبر أمي. لم أخبر أحدًا. الأطفال يتعلّمون بسرعة أن بعض الأبواب، إذا أُغلقت مرّة، لا يُفتح أحد ليسألهم عمّا وراءها. وأمي، في ذلك الوقت، كانت تنظر إليّ كثيرًا، لكنها لم تسأل قط السؤال الصحيح. كانت تسأل: «هل أكلتِ؟» «هل أنهيتِ واجباتك؟» ولم تسأل يومًا: «ماذا حدث لكِ حين لم أكن أنظر؟» ربما لأنها كانت تخاف الجواب أكثر مما أخاف أنا من قوله.

أعدت الصورة إلى الصندوق. أغلقته. جلست على الأرض بين الصناديق المفتوحة، وشعرت فجأة أنني في الثالثة والثلاثين من عمري وما زلت أفعل الشيء نفسه الذي فعلته في التاسعة: أُعيد الأشياء إلى صناديقها، وأُغلق الأغطية، وأمشي بعيدًا وكأن شيئًا لم يحدث.

اتصل هاتفي في تلك اللحظة. اسم لم أرَه منذ ثلاث سنوات أضاء الشاشة. نظرت إليه طويلًا، أطول مما ينبغي لمكالمة عادية. أحصيت الرنّات: واحدة، اثنتان، ثلاث. تذكّرت صوته قبل أن أتذكّر وجهه، وهذا وحده أخبرني كم من الوقت مرّ، وكم بقي منه فيّ رغم ذلك. فكّرت في كل السيناريوهات الممكنة لماذا يتّصل الآن، بعد كل هذا الصمت: ربما رأى شيئًا يذكّره بي، ربما أراد فقط أن يطمئنّ، ربما، وهذا الاحتمال الذي خفته أكثر من غيره، ربما أراد أن يخبرني بخبر لا علاقة له بي على الإطلاق، خطبة، أو زواج، أو مجرّد اتصال عابر لا يحمل أي ثقل ممّا أحمله أنا وحدي.

لم أُجب. ليس لأنني لا أريد، بل لأنني، وللمرة الأولى منذ زمن طويل، لم أعرف أيّ نسخة مني ستردّ لو رفعت السمّاعة: الساخرة التي تعرف كيف تُنهي كل شيء بجملة خفيفة، أم تلك الطفلة التي ما زالت تقف خلف المرآة، تنتظر أن يسألها أحد أخيرًا: ماذا حدث لكِ؟

تركت الهاتف يرنّ حتى صمت من تلقاء نفسه. ثم جلست في العتمة، والصندوق مغلق أمامي، والبحر الذي كان يومًا بلا خوف يتلاطم في مكان ما داخلي، بلا شاطئ هذه المرة يوقفه. عرفت، في تلك اللحظة بالذات، أنني قررت أخيرًا أن أتوقّف عن الهرب. لم أكن أعرف بعد أن القرار وحده لا يكفي. أن التوقّف عن الهرب يحتاج إلى شيء لم يعلّمني أحد إياه: أن أعرف، أوّلًا، من أين أبدأ العودة.

الفصل الثاني

البحر

قبل ذلك الصيف بشهر، كان العالم لا يزال يقاس بالمسافة بين يدي أمي وشاطئ البحر.

كنّا نذهب كل عام إلى البيت نفسه، القريب من الماء، الذي استأجره أبي منذ أن كنت في الخامسة. بيت بسيط بجدران بيضاء تشقّقت من الملح، وشرفة خشبية تصدر صريرًا كلما مشى عليها أحد، وكأنها تريد أن تخبر بمن يدخل ومن يخرج. كانت أمي تسمّي الصرير «حارس البيت الأمين». لم أفهم يومها أن الحرّاس، أحيانًا، ينامون.

كنت في التاسعة، وكان أخي في الثانية، ما يزال يمشي بحذر كأن الأرض قد تنقلب تحته في أيّ لحظة. كنت أحبّه بطريقة لا أعرف أن أصفها إلا الآن: حبّ من يعرف أنه مسؤول عن شيء أكبر منه. كنت أمسك يده كلما اقتربنا من الماء، وأشعر، للمرة الوحيدة في ذلك العمر، أنني قوية بما يكفي لحماية أحد.

كنت أدخل البحر دون خوف. أركض حتى تصل المياه إلى خصري، وأصرخ من بردها، ثم أضحك، وأصرخ ثانية حين تأتي موجة أكبر وتُفقدني توازني. أمي تجلس تحت مظلّتها الصفراء، تراقبني بعين واحدة وتقرأ بالعين الأخرى، وكل دقيقة أو دقيقتين ترفع رأسها لتتأكّد أنني ما زلت هناك، ثم تعود إلى صفحتها. لم أكن أعرف، حينها، أن تلك النظرات المتقطّعة كانت أقصى ما تستطيعه الأمّهات، وأن الأمان الحقيقي أسطورة نرويها للأطفال حتى يناموا مبكرًا.

أبي كان يأتي في عطلات نهاية الأسبوع فقط. رجل هادئ، يحبّ الصمت أكثر مما يحبّ الكلام، وكان صمته نوعًا من الحضور، لا الغياب — أو هكذا ظننت يومها. كان يجلس على الرمل بجانب أمي، يقرأ جريدة قديمة، ويرفع رأسه أحيانًا فقط ليقول: «لا تبتعدي كثيرًا.» لم يكن يقصد المسافة في

الماء. لم يكن يعرف، في الحقيقة، أن هناك مسافة أخرى، أخطر، بدأت تتشكّل بيني وبين نفسي، ولم تكن تُقاس بالأمتار.

في إحدى الأمسيات، جلسنا جميعًا حول طاولة خشبية صغيرة على الشرفة، نأكل السمك الذي اشتراه أبي طازجًا من صيّاد محلّي. سألني أبي، بلهجته الهادئة المعتادة: «هل ستصبحين صيّادة سمك حين تكبرين، يا بنت البحر؟» ضحكت وقلت: «لا، سأصبح شيئًا يجعل الناس ينظرون إليّ بإعجاب.» ضحكت أمي، وقالت: «الناس ينظرون إليك بإعجاب أصلًا، يا صغيرتي.» لم أكن أعرف حينها كم ستتغيّر معاني تلك الجملة في حياتي لاحقًا، كم سأتمنّى، بعد سنوات، لو أن أحدًا نظر إليّ يومًا دون أن يكون في نظرته شيء أطلبه أو أخافه.

كان أخي يبني قلاعًا من الرمل بجدّية طفل يظنّ أن عمله سيصمد للأبد. وكنت أهدمها بقدمي، كل مرة، لا عن قسوة، بل لأنني أردت أن أرى وجهه وهو يقرّر: هل سيبكي أم سيبدأ من جديد؟ كان يختار دائمًا أن يبدأ من جديد. كنت أظن حينها أنه ضعيف لأنه لا يغضب. أعرف الآن أنه كان أقوى منّي بكثير: كان يعرف أن الأشياء تُبنى مرّة أخرى، بينما تعلّمت أنا، بعد ذلك الصيف بقليل، أن بعض الأشياء إذا انهدمت، لا تُبنى بالطريقة نفسها أبدًا.

في المساء، كنّا نمشي على الرصيف المحاذي للشاطئ، أمي تحمل أخي النائم على كتفها، وأنا أمشي أمامهما بخطى واسعة، أتظاهر بأنني أكبر ممّا أنا عليه. كانت هناك عربة صغيرة تبيع الفلافل، وصاحبها رجل مسنّ يعرف اسمي، ينادي عليّ: «يا بنت البحر»، لأنني كنت أدخل الماء في كل الفصول تقريبًا، حتى حين يكون الجو باردًا. كنت أحبّ ذلك اللقب. شعرت، لأوّل مرّة منذ سنوات، أنني أفتقد أن يناديَني به أحد.

في تلك الإجازة، بدأ جيراننا الجدد يترددون علينا. عائلة استأجرت البيت المجاور، بيتًا بنوافذ زرقاء، لم ألاحظ لونها يومها بالقدر الذي لاحظته لاحقًا، حين عادت الذاكرة تكبّر التفاصيل الصغيرة وتصبغها بلون واحد. كان في تلك العائلة رجل يكبرني بكثير، يعامل الجميع بلطف مبالغ فيه، يجلب

لأخي حلوى، ويمدح رسوماتي، ويقول لأمي إنني «طفلة نادرة الذكاء». كانت أمي تشكره، وتبتسم، وتقول لي بعده: «كن مهذّبة معه، إنه رجل طيّب.»

جاء إلى شرفتنا أكثر من مرّة، يحمل معه لعبًا صغيرة لأخي، ودفتر رسم جديدًا لي حين رأى أنّ دفتري القديم امتلأ. جلس مرّة يشرح لأبي، بحماس مصطنع بدا لي حينها اهتمامًا حقيقيًّا، عن عمله في مدينة بعيدة، وعن أنه يقضي إجازته وحيدًا لأن «زوجته توفّيت منذ سنوات ولم يُرزق بأطفال». قال ذلك بصوت حزين محسوب، ونظر إليّ وأنا ألعب قريبًا، وقال: «أتمنّى لو كانت لي ابنة مثلها.» ابتسمت أمي بتعاطف، ولم تنتبه أن نظرته حين قال تلك الجملة بقيت عليّ أطول ممّا تقتضيه جملة عابرة عن الحنين.

لم يكن هناك ما يجعلني أشكّ. الأطفال لا يُدرَّبون على الشكّ؛ يُدرَّبون على الطاعة والابتسام. وأنا كنت طفلة مطيعة، تبتسم حين يُطلب منها ذلك، وتصافح من يمدّ يده، وتجلس بجانب من تُطلب منها الجلوس بجانبه. لم يكن أحد قد علّمني، بعد، أن للجسد حقًّا في الرفض، وأن الابتسامة ليست دائمًا موافقة.

في آخر أسبوع من تلك الإجازة، عرض ذلك الرجل أن يعلّمني لعبة ورق كان يلعبها في شبابه. أمي كانت مشغولة بتحضير حقائبنا للعودة. قالت: «اذهبي، سيكون لطيفًا.» ذهبت. لم يكن هناك خوف في تلك اللحظة. كان هناك فقط فضول طفلة، وبيت بنوافذ زرقاء، وباب سيُغلق خلفي دون أن أعرف أن بعض الأبواب، حين تُغلق، تأخذ معها شيئًا لا يُعاد.

الفصل الثالث

الباب المغلق

الغرفة كانت أصغر ممّا تصوّرت، وأكثر ترتيبًا ممّا توقّعت من رجل يعيش وحده. سرير مرتّب، طاولة صغيرة عليها أوراق لعب، ونافذتان زرقاوان تطلّان على الجزء الخلفي من البيت، حيث لا يمرّ أحد.

جلست حيث أشار. بدأ يشرح قواعد اللعبة بصوت هادئ، صوت الكبار حين يتحدّثون إلى الأطفال، ذلك الصوت الذي يجعلك تصدّق أن كل شيء عادي لمجرّد أنه هادئ. رتّب الأوراق على الطاولة الصغيرة، شرح لي معنى كل رمز عليها، وضحك حين أخطأت في ترتيبها، ضحكة لم تكن قاسية، بل مشجّعة، من النوع الذي يجعل طفلة تريد أن تحاول مرّة أخرى لترضي من يضحك معها لا عليها.

في مرحلة ما من اللعبة، لاحظت تغيّرًا صغيرًا في صوته، بطأً في الكلمات، ونظرة طالت أكثر من العادة على يديّ وأنا أرتّب الأوراق. لم أفهم ما كان يعنيه ذلك التغيّر؛ لم يكن لديّ بعد قاموس لتفسير مثل هذه الإشارات. شعرت فقط بشيء غير مريح، إحساس خفيف يشبه برودة مفاجئة في غرفة كانت دافئة قبل لحظات، لكنني، كما تفعل الفتيات المطيعات، ابتسمت وتظاهرت أنني لم ألاحظ شيئًا، لأنني لم أكن أعرف بعد أن ملاحظتي كانت صحيحة تمامًا.

في مرحلة ما، توقّف عن الشرح. لم أفهم لماذا. نظرت إليه لأسأل، ثم لم أعد أفهم شيئًا آخر بعدها.

لا أريد أن أصف ما حدث بعد ذلك. ليس لأنني لا أذكره — أذكره بطريقة لا تشبه الذكرى، بل تشبه شيئًا محفورًا في الجسد نفسه، في ردّة فعل يدي حين تُمسك فجأة، في الطريقة التي أتجمّد بها كل مرّة يقترب أحد أكثر ممّا ينبغي. لكنني تعلّمت، منذ زمن طويل، أن بعض التفاصيل حين تُروى بدقّة، تُصبح مِلكًا لمن يسمعها لا لمن عاشها. لن أعطي أحدًا هذا الحقّ. سأقول فقط: انتهى الباب مغلقًا، والغرفة زرقاء، وأنا، في مكان ما داخل نفسي، لم أعد بالكامل في تلك الغرفة.

تعلّم جسدي، في تلك اللحظة بالتحديد، مهارة لم أطلبها ولم يعلّمني إياها أحد: أن يغادر دون أن يتحرّك. أن يبقى الجسد جالسًا، مؤدّبًا، ساكنًا، بينما أذهب أنا إلى مكان آخر، بعيد، أراقب من هناك ما يحدث لتلك الطفلة الجالسة على السرير، وكأنها ليست أنا، وكأنّ ما يحدث لها لا يعنيني، لأنني، ببساطة، لم أعد هناك.

حين انتهى كل شيء، قال لي بابتسامته اللطيفة نفسها: «هذه لعبتنا الصغيرة. لا داعي أن نخبر أحدًا، فالكبار لا يفهمون الألعاب.» أومأت برأسي. لم أفهم، حينها، أنني كنت أوافق على شيء أكبر من لعبة. كنت فقط طفلة تريد أن تخرج من تلك الغرفة، وتُصدّق أيّ شيء يجعل الخروج ممكنًا.

خرجت. الشمس كانت لا تزال في مكانها، عاليةً، غير مبالية. الصوت الوحيد الذي أذكره هو صرير الشرفة حين مشيت عليها — «حارس البيت الأمين» — وفكّرت، بطريقة طفولية مشوّشة، أن الحارس نام في تلك اللحظة بالذات، وأنني لن أخبره كيف فرّط في مهمّته، لأنه، مثل كل الحرّاس الذين عرفتهم لاحقًا، لم يكن يُصنع أصلًا ليحمي أحدًا. كان فقط صوتًا نطمئن به أنفسنا قبل النوم.

مشيت على الرمل بخطى بطيئة، أنظر إلى قدميّ وهما تغرقان قليلًا في كل خطوة، وكأنني أتأكّد أنني لا أزال أملك جسدًا يحمل وزني. مرّت طائرة ورقية فوق رأسي، أطلقها طفل لا أعرفه من مكان ما على الشاطئ، وتبعتها بعينيّ حتى اختفت خلف سحابة، وتمنّيت، للحظة غريبة، لو كنت تلك الطائرة، شيئًا يمكن أن يطير بعيدًا دون أن يسأله أحد كيف حاله.

وجدت أخي يلعب وحده قرب الباب، يبني قلعة صغيرة جديدة. رفع رأسه ورآني، وقال ببراءته المعتادة: «أين كنتِ؟ فاتك أنني وجدت صدفة كبيرة!» مدّ يده ليريني صدفة بيضاء، وابتسمت له، ابتسامة اضطُررت لصنعها من العدم، وقلت: «جميلة.» جلست بجانبه للحظات، أراقبه يواصل بناءه، وفكّرت أن هذا الطفل، الذي أحبّه أكثر من أي شيء في العالم، لن يعرف أبدًا ماذا حدث لأخته منذ نصف ساعة فقط، وأنّ هذا بالتحديد هو الشيء الذي سأحميه به: جهله.

وجدت أمي في المطبخ، تُغلّف الأطباق استعدادًا للرحيل. رفعت رأسها ونظرت إليّ نظرة عابرة، ثم عادت إلى عملها. لم تسأل أين كنت. لم تسأل لماذا كانت يداي باردتين رغم الحرّ. لم تسأل لماذا توقّفت، من ذلك اليوم، عن طلب أن أدخل البحر.

لم أخبرها. لم أخبر أحدًا. ليس لأنني ظننت أنها لن تصدّقني — لم أكن قد وصلت بعد إلى تلك الأفكار المعقّدة — بل لأن جزءًا منّي، جزءًا قديمًا وحكيمًا بطريقة مؤلمة، فهم فورًا أن هذا سرّ يُفترض أن يبقى سرًّا. الأطفال يتعلّمون هذا الدرس بسرعة مخيفة: أن بعض الأبواب، إذا أُغلقت مرّة، تُغلق للأبد، وأن السؤال الذي لا يُطرح لا يحتاج إلى جواب.

الفصل الرابع

الصمت

عدنا إلى المدينة بعد أسبوعين. البيت نفسه، الغرفة نفسها، الألعاب نفسها مرتّبة على الرفّ كما تركتها. لكنّ شيئًا ما في داخلي كان قد تغيّر ترتيبه، بطريقة لا تراها العين، وإن كانت أمي، لو نظرت جيّدًا، ربما لاحظتها.

توقّفت عن طلب الحلوى بعد العشاء. توقّفت عن الغناء وأنا أستحمّ، تلك العادة التي كانت تجعل أمي تضحك من خلف الباب وتقول: «صوتك ليس جميلًا كفاية لهذا الحماس.» توقّفت، دون أن أقرّر ذلك بوعي، عن ترك الباب مفتوحًا حين أغيّر ملابسي. بدأت أغلق كل الأبواب خلفي، وكأنّني أتدرّب، دون أن أعرف، على مهارة سأحتاجها طوال حياتي: أن أحمي نفسي من داخل غرفة صغيرة لا يدخلها أحد.

في المدرسة، بدأت أجلس في الصف الأخير. لم أكن قد جلست هناك من قبل؛ كنت دائمًا أحبّ الصفوف الأمامية، أحبّ أن يراني المعلّم حين أرفع يدي. لكنني، بعد ذلك الصيف، أردت أن أكون في مكان لا يراني منه أحد بوضوح كافٍ. تعلّمت أن ألتفّ حول نفسي كورقة تحاول ألّا تُقرأ.

لاحظت معلّمة الرسم، وهي المرأة الوحيدة التي أحببت حصّتها في تلك السنة، أن رسوماتي تغيّرت. كنت أرسم، قبل ذلك الصيف، بيوتًا وأشجارًا وشموسًا صفراء كبيرة تملأ زاوية الورقة. بعده، بدأت أرسم بيوتًا بلا نوافذ، أو بنوافذ مغلقة بإحكام، وأحيانًا غرفًا فارغة تمامًا لا يوجد فيها أحد. توقّفت أمام رسمتي مرّة، طويلًا، ثم سألتني: «لماذا لا يوجد أحد في بيوتك هذه الأيام؟» أجبت بسرعة: «لأنهم خرجوا يتنزّهون.» ابتسمت، وتركت الأمر، لكنني رأيت في عينيها ظلًّا من قلق لم يتحوّل إلى سؤال مباشر أبدًا.

بدأت أيضًا أستيقظ ليلًا، فجأة، بلا كابوس محدّد أذكره، فقط بإحساس ثقيل يجلس على صدري كحجر، وبرغبة في التحقّق أن الباب مغلق، ثم مغلق مرّة أخرى، ثم أتأكّد ثالثة قبل أن أستطيع النوم. لم أفهم حينها أن هذا الفحص المتكرّر للباب كان أول أشكال طقوسي الدفاعية التي ستلازمني لسنوات: حاجة لا تشبع للتأكّد أن الأبواب، هذه المرّة، ستبقى كما تركتها.

أخي، في براءته، سألني مرّة: «لماذا لم تعودي تسبحين في حوض النادي؟» لم أجب. قلت له إنني أُصبت ببرد في أذني. صدّقني، لأن الأطفال يصدّقون بعضهم بسهولة، ولأنه لم يكن قد تعلّم بعد أن للكذب أنواعًا: كذبة تحمي، وكذبة تخفي، وكذبة، مثل كذبتي تلك، تفعل الاثنين معًا.

أمّي، من جهتها، لاحظت. أعرف الآن أنها لاحظت، لأن الأمّهات، مهما بدون غافلات، يسجّلن كل شيء في مكان ما تحت وعيهنّ يتجاهلنه حين تكون الحقيقة أثقل ممّا يستطعن حمله. لاحظت أنني توقّفت عن الضحك بصوت عالٍ. لاحظت أنني بدأت أستحمّ لوقت أطول ممّا ينبغي، وكأنني أحاول غسل شيء لا يُرى بالعين. لاحظت أنني صرت أفزع من لمسة يد مفاجئة، حتى لو كانت يدها هي.

مرّة واحدة، جلست بجانبي على السرير، في ليلة لم أستطع فيها النوم، ونظرت إليّ طويلًا، وكأنها تجمع شجاعة لسؤال لا تعرف كلماته. كانت الغرفة مضاءة بمصباح صغير فقط، وظلّها يتراقص على الحائط خلفها بحركة الستارة التي يحرّكها الهواء. فتحت فمها، ثم أغلقته. فتحته مرّة أخرى، وقالت أخيرًا: «هل هناك شيء تريدين إخباري به؟»

كانت تلك، في حياتي كلها، أقرب لحظة اقتربت منها الحقيقة من أن تُقال. جلست في صمت طويل، أزن الكلمات، أتخيّل وجهها لو عرفت، أتخيّل العالم ينهار حولنا جميعًا: أبي يواجه ذلك الرجل، أمي تبكي، الجيران يتحدّثون، وأنا، في المنتصف، أصبح القصّة التي يتناقلها الجميع بصوت خفيض. فكّرت في كل هذا في ثوانٍ معدودة، بسرعة لا تشبه سرعة تفكير طفلة في التاسعة، لكنها كانت السرعة التي فرضتها عليّ تلك الغرفة الزرقاء. ثم قلت: «لا. أنا بخير.»

لم تُصرّ. ربما لأنها أرادت أن تصدّقني أكثر ممّا أرادت أن تعرف الحقيقة. أو ربما لأن جزءًا منها، ذلك الجزء الذي يخاف الحقائق الكبيرة، فضّل أن يترك الباب كما هو: موصدًا، هادئًا، آمنًا في مظهره على الأقل.

بعد أيام قليلة، وأنا أساعدها في طيّ الغسيل، نظرت إليّ فجأة، بطريقة لم أفهمها حينها، وقالت: «أنتِ كبيرة الآن.» لم يكن هناك سياق واضح لتلك الجملة. لم أكن قد كبرت في شيء ملموس؛ كنت لا أزال في التاسعة، بجسد طفلة وعقل طفلة. لكنها قالتها بنبرة من يعترف بشيء دون أن يواجهه، من يغلق بابًا بينما يقول إنه يفتحه. لم تكن تعرف ماذا تقول. لكنها قالتها. وأنا، من جهتي، أخذتها كما أُريد لها أن تُقال: أنّ الطفلة التي كانت، لم تعد موجودة، وأنّ من بقي مكانها عليها أن تتدبّر أمرها وحدها من الآن فصاعدًا.

الجزء الثاني

حين صار الخوف عادة

الفصل الخامس

أول قبلة

في الرابعة عشرة، كنت قد نسيت كيف أطلب الأشياء لنفسي. لم أعد أعرف الفرق بين أن أريد شيئًا وبين أن أسمح لشخص آخر بأن يريده منّي. كان هذا الخلط، وقتها، يبدو لي شيئًا طبيعيًا جدًّا، لأنني لم أعرف نسخة أخرى من نفسي لأقارن بها.

اسمه لا يهمّ. لم يكن شريرًا، ولم يكن أول من آذاني، لكنه كان أول من جعلني أشعر أنّ النظر إليّ فعل كافٍ لأشعر بالوجود. كان في السادسة عشرة، يجلس في الصف الأخير مثلي، وله ضحكة تجعل الفتيات يتجمّعن حوله في الفسحة كأسراب طيور حول خبز. لم أفهم يومها لماذا اخترته أنا من بين كل الفتيات. أفهم الآن: لأنه كان أول من نظر إليّ نظرة لا تطلب شيئًا واضحًا، فظننت أنها بريئة.

أعطاني رسالة مطويّة بشكل مثلث. كنت أتوقّع جملة طويلة، كلمات متعددة، شرح. لكنها كانت جملة واحدة فقط: «عيناكِ لا تشبهان عيون أحد.» قرأتها عشرين مرّة في الحمّام. كل مرّة أبحث عن شيء: خفّ، نيّة خفية، ثمن مؤجّل. كنت بالفعل أعرف أن الكلمات اللطيفة، في عالمي، لا تأتي مجانًا.

لم أجد شيئًا – فقط مراهق يحاول أن يكون شاعريًّا. لكنني احتفظت بالرسالة كما تحتفظ الطيور بحبّة قمح في الشتاء: خوفًا من الجوع، لا حبًّا في الطعم.

بدأنا نلتقي في أماكن لا تسأل فيها الناس أسئلة. مقهى صغير خلف السوق، حديقة عندما يغيب الضوء. لم يكن يأخذ يدي؛ لم يضطرّ. كنت أسير بجانبه ضاغطة على ذراعي بإحكام، خائفة أن تسقط أو أسقط. الحب، كما فهمته حينها، كان فعل بقاء. كان الاقتراب ممّن قد يمنع سقوطك. لم أعرف أنني، في كل مرّة أقترب منه، أسقط أبعد داخل نفسي.

أول قبلة كانت خلف الملعب، بعد المدرسة، في يوم ماطر خفيف. لم أشعر بشيء استثنائي في تلك اللحظة، رغم أنني كنت قد تخيّلتها مئة مرّة. شعرت فقط بالارتياح، وكأنني اجتزت امتحانًا لم أفهم أسئلته لكنني نجحت فيه بطريقة ما. عدت إلى البيت وأنا أضحك دون سبب واضح، وأمي سألتني: «ما بكِ اليوم؟» فقلت: «لا شيء. أنا سعيدة فقط.» كانت تلك، منذ ذلك الصيف، أول مرّة أقول فيها هذه الجملة وأعنيها، ولو جزئيًّا.

استمرّت علاقتنا أشهرًا. كان يطلب رؤيتي كل يوم تقريبًا، وكنت أذهب، حتى حين أتعب، حتى حين أُفضّل البقاء وحدي. لم أكن أعرف كيف أقول «لا» دون أن أشعر أنني سأخسر الشيء الوحيد الذي جعلني أشعر بأنني مرئيّة. تعلّمت، منذ ذلك الصيف الأزرق، أن رفضي لا يهمّ كثيرًا، وأن الطريق الأسلم هو أن أوافق قبل أن يُطلب منّي، فأشعر، على الأقل، أنني من اخترت.

كانت صديقاتي يغرن منّي، ويتهامسن حين أمرّ: «انظري، هذه التي أحبّها.» كنت أستمتع بهذا الهمس أكثر ممّا أستمتع بأي شيء آخر في تلك العلاقة، لأنه كان دليلًا ملموسًا على أنني، أخيرًا، شيء يستحقّ أن يُتحدّث عنه بإعجاب لا بشفقة. جلست معه مرّة على درج المدرسة، وسألني: «بم تفكّرين؟» وكنت، في الحقيقة، أفكّر في شيء لا علاقة له به على الإطلاق، في صوت باب يُغلق، لكنني قلت: «أفكّر فيك.» ابتسم، وصدّقني، لأن المراهقين، مثل الأطفال، يصدّقون بسهولة من يحبّونه.

حين انتهت العلاقة – فجأة، دون سبب واضح، كما تنتهي علاقات المراهقين عادة، حين أخبرني أصدقاؤه أنه أعجب بفتاة أخرى في مدرسة مجاورة – بكيت أيامًا. جلست في غرفتي أرفض الطعام، وأمي، قلقة، سألتني عن السبب، فقلت إنني مريضة. صدّقتني، أو تظاهرت بذلك، لأن الكذب، اكتشفت في تلك المرحلة تحديدًا، لغة يتقنها الجميع في هذا البيت، كلٌّ بطريقته.

لم أكن أبكي عليه بالضبط. كنت أبكي على تلك النظرة التي اختفت معه، تلك التي جعلتني أشعر، ولو لوقت قصير، أنني شيء يستحقّ أن يُنظر إليه لا لأنه مفيد أو جميل أو مطيع، بل لأنه، ببساطة، موجود.

كتبت في دفتري الصغير، بخط مراهقة ما تزال تتعلّم الكتابة عن مشاعرها: «أحببته كثيرًا.» أعيد قراءة تلك الجملة الآن، بعد عشرين سنة، وأضحك بمرارة. لم أكن أحبّه. لم أعرف، حتى تلك اللحظة، معنى أن أحبّ أحدًا. كنت فقط أحبّ أنّه نظر إليّ. وهذا فرق سأقضي حياتي كلها أحاول أن أتعلّمه، وأفشل في تعلّمه، مرارًا وتكرارًا.

الفصل السادس

الجسد الآخر

في السادسة عشرة، كان لديّ جسدان. جسد يمشي في الشارع، يضحك مع صديقاته، يشتري دفاتر المدرسة، يشتكي من الواجبات. وجسد آخر، أعمق، تعلّمت أن أرسله بعيدًا كلما اقترب أحد أكثر ممّا ينبغي. لم أختر هذا الانقسام. تعلّمته، كما تتعلّم اليد أن تبتعد عن النار بعد أول احتراق، دون أن يعلّمها أحد قوانين الفيزياء.

كان اسمه مختلفًا عن الأول. أكبر منّي بأربع سنوات، يقود سيارة، وهذا وحده كان كافيًا ليبدو، في عيون فتاة في السادسة عشرة، رجلًا لا مراهقًا. كان لطيفًا في البداية بطريقة تشبه لطف كل من عرفتهم لاحقًا: لطف يسبق الطلب، كأنه استثمار.

التقيته عند صديقة مشتركة، وأخذني في جولة بسيارته في أول لقاء، نوافذ مفتوحة، موسيقى عالية، وأنا أشعر بشيء يشبه الكبرياء لمجرّد جلوسي في مقعد السيارة الأمامي بجانب شابّ يعرف الجميع أنه «مرغوب فيه». اصطحبني إلى مطاعم لم أكن لأذهب إليها بمفردي، ودفع دائمًا دون أن يترك لي فرصة الاعتراض، وكنت أفسّر هذا كرومانسية، لا كوسيلة هادئة لبناء دين يجب سداده لاحقًا.

في إحدى الليالي، قال لي بصوت جادّ فجأة: «أشعر أنك مختلفة عن كل الفتيات اللواتي عرفتهن.» صدّقته. أردت أن أصدّقه، لأن أحدًا لم يقل لي جملة كهذه من قبل بهذا الوضوح. لم أفهم، حينها، أن هذه الجملة نفسها، بصياغات مختلفة قليلًا، ستتكرّر على لسان رجال كثيرين بعده، جميعهم يعتقدون أنهم أول من يقولها.

حين حان الوقت — وأنا أستخدم هذا التعبير عن قصد، لأنني في تلك الليلة شعرت أن هناك «وقتًا محددًا» يجب أن يحين، جدولًا غير مكتوب يسيرون عليه جميعًا — لم أقل «لا». لم أقل أيضًا «نعم» بوضوح. قلت الصمت. تعلّمت، منذ الغرفة الزرقاء، أن الصمت لغة تُفهم كموافقة، حتى حين لا يقصد صاحبها شيئًا من ذلك.

لن أصف التفاصيل. لن أفعل ذلك لأي ليلة من هذا النوع في حياتي، ليس خجلًا، بل لأنّ التفاصيل ليست ما يهمّ في هذه القصة. ما يهمّ هو أنني، في تلك الغرفة، فعلت الشيء نفسه الذي أتقنته في التاسعة: غادرت. تركت جسدي هناك، مؤدّبًا، متعاونًا حتى، وذهبت أنا إلى مكان آخر في رأسي، أراقب سقف الغرفة، أحصي بقعًا في الطلاء، أفكّر في واجب مدرسي لم أنهه بعد.

حين انتهى كل شيء، سألني: «هل كان جميلًا؟» ابتسمت وقلت: «نعم.» لم يكن كذبًا كاملًا، ولم يكن صدقًا كاملًا أيضًا. كان، ببساطة، الجواب الذي تعلّمت أن أقوله دائمًا، لأنّ الجواب الصادق يحتاج إلى سؤال لا يعرف أحد كيف يطرحه: «هل كنتِ هناك أصلًا؟»

في طريق العودة إلى البيت، جلست في السيارة أنظر من النافذة، أعدّ أعمدة الإنارة كلما مرّت، واحدًا تلو الآخر، بطريقة تشبه العدّ الذي يفعله من يحاول أن يهدّئ نفسه بعد صدمة، وإن كنت لم أعرف حينها أن هذا هو ما أفعله بالضبط. كان يتحدّث بحماس عن خططه لعطلة نهاية الأسبوع، وأنا أومئ برأسي في الأوقات المناسبة، بمهارة تعلّمتها منذ زمن: أن أبدو حاضرة بينما جزء كبير منّي في مكان آخر تمامًا.

أوصلني إلى قرب البيت، قبّلني قبلة سريعة، وقال: «أراكِ غدًا.» ابتسمت. لوّحت. دخلت البيت وصعدت السلالم بهدوء، وأنا أفكّر أنني أدّيت الدور جيّدًا، أدّيته بإتقان يستحقّ الثناء.

في تلك الليلة، وقفت أمام مرآة غرفتي طويلًا، أبحث عن علامة، عن أثر، عن شيء يثبت أن ما حدث كان حقيقيًّا. لم أجد شيئًا على الوجه. الوجه كان كما هو: فتاة في السادسة عشرة، شعرها مبلل قليلًا من المطر، عيناها لا تزالان كما وصفهما ذلك المراهق قبل عامين. لم يتغيّر شيء في المظهر.

تغيّر فقط شيء لا تراه المرايا: أنني كنت في تلك الغرفة، منذ ساعة فقط، لكنني، بمعنى ما، لم أكن هناك.

الفصل السابع

المرآة المكسورة

في السابعة عشرة، كانت لديّ علاقة أخرى، ثم أخرى، بأسماء تختلط في ذاكرتي الآن كأنها اسم واحد متكرّر بوجوه مختلفة. لم أعد أذكر تفاصيل كل واحدة منها، لكنني أذكر النمط: أذهب إليهم قبل أن يطلبوا، أرحل قبل أن يملّوا، أبتسم في اللحظة التي يُفترض أن أشعر فيها بشيء آخر.

في تلك السنة، بدأت ألاحظ شيئًا في نفسي كنت أتجنّب النظر إليه: أنني صرت أعرف، بدقّة تشبه الحساب، ماذا يريد كل رجل قبل أن يقوله. أعرف الابتسامة التي تُطمئنه، والنظرة التي تجعله يظنّ أنه مميّز، والصمت الذي يفسّره نكجل لا كغياب. كنت بارعة في هذه اللعبة، بارعة بطريقة تخيفني حين أفكّر فيها الآن: طفلة تعلّمت، دون أن تُدرَّب رسميًّا، كيف تصبح ما يريده الآخرون قبل أن يعرفوا هم أنفسهم ماذا يريدون.

أذكر واحدًا منهم، اسمه لا يهمّ كغيره، جلس معي في مقهى وقال بجدّية طفولية: «أشعر أنني أعرفك منذ زمن طويل، رغم أننا التقينا الأسبوع الماضي فقط.» ابتسمت الابتسامة المناسبة، وقلت: «وأنا أيضًا.» لم أكن أكذب تمامًا؛ كنت أعرف، بالفعل، كل ما سيقوله بعد قليل، وكل ما سيتوقّعه لاحقًا، لأنني سمعت النسخة نفسها، بكلمات مختلفة قليلًا، عشرات المرّات من قبله.

في تلك الفترة أيضًا، بدأت أشتري ملابس أكبر من مقاسي بقليل، فضفاضة، تخفي أكثر ممّا تُظهر. سألتني صديقة عن السبب، فقلت: «أفضّل الراحة.» لم تكن كذبة كاملة، لكنها لم تكن الحقيقة أيضًا: كنت أحاول، بطريقة غير واعية، أن أجعل الجسد الذي صار مصدر كل الانتباه غير المرغوب فيه أقلّ وضوحًا، أن أختفي داخل قماش لا يروي عني شيئًا.

اشترت أمي تلك المرآة، بإطارها الخشبي المنقوش، بمناسبة انتقالنا إلى شقّة جديدة تلك السنة. تذكّر أنها وقفت أمامها في المحلّ طويلًا، تلمس الإطار بإعجاب، وقالت لي: «هذه ستجعل غرفتك تبدو أكبر، وستجعلك تشعرين بجمالك كل صباح.» ابتسمت لها حينها، وشكرتها، لكنني، في داخلي، شعرت بثقل خفيف لم أفهمه: مرآة كبيرة تعني انعكاسًا كاملًا، ولم أكن، حتى في تلك اللحظة، مستعدّة لرؤية نفسي كاملة.

في مساء عادي، عائدة من لقاء لم يترك في ذاكرتي أثرًا يستحقّ الذكر، وقفت أمام المرآة الكبيرة في غرفتي، تلك التي كانت أمي قد اشترتها لي حين انتقلنا إلى شقّة جديدة، بإطار خشبي منقوش أحبّته أمي أكثر ممّا أحببته أنا. نظرت إلى انعكاسي طويلًا، أطول من المعتاد. كنت أبحث، كعادتي، عن أثر خارجي لما بداخلي. لكن هذه المرّة، للمرة الأولى، لم أرَ فتاة جميلة تعرف كيف تُرضي الآخرين. رأيت شيئًا آخر: غريبة. امرأة صغيرة السنّ، بعينين فارغتين من أي شيء يخصّها هي وحدها، ترتدي وجهًا مُعارًا، تبتسم ابتسامة تعلّمتها من كثرة التدريب لا من شعور حقيقي.

شعرت بغثيان مفاجئ، ليس من المرآة، بل ممّا رأيته فيها. رفعت يدي، دون تفكير واضح، ودفعت المرآة بقوة عن الحائط. سقطت وتحطّمت على الأرض بصوت حادّ أفزع أمي في الغرفة المجاورة. جاءت راكضة، رأت الزجاج المتناثر، رأتني واقفة بلا حركة، فسألت: «ماذا حدث؟» قلت: «انزلقت من يدي.» صدّقتني، أو تظاهرت بذلك، وبدأت تجمع الشظايا بحذر، وأنا أقف بجانبها، أنظر إلى قطع من وجهي مبعثرة على الأرض، كل قطعة تعكس زاوية مختلفة منّي، ولا واحدة منها تُظهر الصورة كاملة.

لم أشترِ مرآة جديدة لسنوات طويلة بعدها. كنت أتحضّر في الحمّام العام باستخدام مرآة صغيرة في حقيبتي، أرى فيها جزءًا واحدًا فقط من وجهي في كل مرّة: عينًا، أو فمًا، أو جبينًا. تعلّمت أن أتعامل مع نفسي بالتجزئة، كما تعلّمت جسدي أن يتجزّأ في تلك الغرفة الزرقاء قبل سنوات. الصورة الكاملة كانت أثقل ممّا أستطيع حمله.

منذ ذلك اليوم، لم أنظر إلى نفسي بحبّ. نظرت بفحص، بحذر، بحساب أحيانًا، لكن ليس بحبّ. الحبّ، اكتشفت لاحقًا، يحتاج إلى نظرة كاملة، ثابتة، لا تخاف ممّا قد تكشفه. وأنا، منذ تلك المرآة المكسورة، لم أعد أثق بنفسي كفاية لأنظر بهذه الطريقة، لا إلى وجهي، ولا إلى أيّ شيء آخر يخصّني وحدي.

الفصل الثامن

الهروب الأول

في نهاية المراهقة، قرّرت أنني سأرحل. لم يكن قرارًا مدروسًا بقدر ما كان انفجارًا مؤجّلًا منذ سنوات. سمعت، في الليلة السابقة، أمي وأبي يتحدّثان بصوت خفيض في غرفتهما، وسمعت اسمي يتكرّر، وكلمة «تغيّرت» تُقال بنبرة قلق ممزوج بلوم غير مباشر، وكأنّ تغيّري ذنب ارتكبته أنا وحدي، لا نتيجة شيء حدث لي. لم أستطع النوم تلك الليلة، وقرّرت، في الصباح، أن الرحيل أسهل من محاولة إقناع أحد بأنّ ما تغيّر فيّ ليس خطأً يستحقّ الإصلاح، بل جرحًا يستحقّ العلاج.

حزمت حقيبة صغيرة فيها ملابس قليلة، بعض المال الذي ادّخرته من مصروفي، ودفتري الذي كتبت فيه، منذ الرابعة عشرة، جملًا لم أجرؤ يومًا على قراءتها بصوت عالٍ أمام أحد.

خرجت من البيت في الصباح الباكر، قبل أن يستيقظ أحد، وأنا أفكّر أنني سأذهب إلى مدينة أخرى، أيّ مدينة، بعيدًا عن هذا البيت الذي تعلّمت فيه أن الصمت أضمن من الكلام. لم يكن لديّ خطّة واضحة. كان لديّ فقط رغبة عارمة في أن أكون في مكان لا يعرف فيه أحد قصّتي، مكان يمكنني أن أبدأ فيه من جديد، كصفحة بيضاء، أو هكذا تخيّلت.

وصلت إلى محطّة الحافلات، ووقفت أمام الشباك طويلًا، أحسب المال في يدي، أقرأ أسماء المدن على اللوحة، لا أعرف أيّها تختارني بدل أن أختارها أنا. جلست على مقعد خشبي في زاوية المحطّة، وبدأت أفكّر، للمرّة الأولى بوضوح، في السؤال الذي لم أطرحه على نفسي حين خرجت من البيت: إلى أين، بالضبط؟

لم يكن لديّ جواب. لم يكن هناك أحد ينتظرني في أي مدينة، لا صديقة، لا قريبة، لا مكان أعرف فيه بابًا سيُفتح لي لو طرقته. أدركت، بينما أراقب الحافلات تأتي وتذهب، أن الهروب الحقيقي ليس مسألة مسافة. أنّ ما أريد الهرب منه لا يعيش في ذلك البيت وحده، بل يعيش فيّ، وسيركب معي أيّ حافلة أختارها، وسيجلس بجانبي في أيّ مدينة أصل إليها.

بقيت في المحطّة حتى الظهيرة، أراقب الناس: أمّ تحمل طفلًا وتوبّخه بحنان، عاملًا يحمل حقيبة أدوات ثقيلة وينام واقفًا كلّما توقّفت حافلة، عجوزًا يجلس وحده يقرأ جريدة بلا عجلة، وكأنّ الزمن، بالنسبة له، توقّف عن الضغط عليه منذ زمن طويل. تخيّلت حياة كل واحد منهم، اخترعت لهم قصصًا كاملة في رأسي، وشعرت، للحظة، أن اختراع حياة الآخرين أسهل بكثير من مواجهة حياتي أنا.

أؤجّل قراري ساعة بعد أخرى، حتى أدركت أن التأجيل نفسه كان جوابًا. لم أكن هاربة من البيت بقدر ما كنت أبحث عن مكان أستطيع فيه أن أكون شخصًا آخر، وفهمت، في تلك اللحظة، أن هذا المكان غير موجود، لأن الشخص الذي أريد الهرب منه هو أنا.

عدت إلى البيت في المساء، قبل أن تلاحظ أمي غيابي الطويل بسبب مناوبتها في العمل. دخلت غرفتي بهدوء، وضعت الحقيبة تحت السرير، ولم أُخبر أحدًا بما حاولت فعله. عدت. لأنني لم أعرف إلى أين أذهب. لم أعرف يومها أن هذا الجواب سيلاحقني لسنوات طويلة قادمة، في كل مرّة أفكّر فيها بالرحيل عن شيء أو أحد: لن أرحل أبدًا حقًّا، حتى أعرف أوّلًا إلى أين أذهب داخل نفسي.

الجزء الثالث

حين اكتشفت أن الجسد عملة

الفصل التاسع

الوظيفة الأولى

في الثانية والعشرين، حصلت على أول وظيفة حقيقية في حياتي: مساعدة في استوديو تصوير صغير، يملكه رجل في الأربعينيات، معروف في أوساط ضيّقة بأنه «يصنع النجوم». كنت فخورة بنفسي يومها بطريقة لم أشعر بها منذ زمن طويل. أخيرًا، شيء أنجزته بجهدي، لا بابتسامتي.

في الأسابيع الأولى، كان كل شيء كما يُفترض أن يكون: تدريب، ملاحظات، تصحيحات على طريقتي في الإضاءة وزوايا التصوير. كان يمدحني أمام الآخرين، يقول إنّ لديّ «عينًا نادرة»، وكنت أصدّقه، لأنني، ببساطة، أردت أن أصدّق أن هناك، أخيرًا، من يرى فيّ شيئًا غير جسدي.

كانت هناك مصوّرة أخرى في الاستوديو، أكبر منّي بسنوات قليلة، اسمها سلمى، أصبحت أقرب صديقة لي في تلك الفترة. حذّرتني مرّة، بصوت خفيض في المطبخ الصغير خلف الاستوديو: «كوني حذرة معه. لا أقول إنه سيئ، لكن هناك طريقة ينظر بها إلى الفتيات الجديدات.» ضحكت وقلت:

«أنا أعرف كيف أحمي نفسي.» ابتسمت سلمى ابتسامة حزينة، وقالت: «هذا ما قلته أنا أيضًا، قبل ثلاث سنوات.» لم أفهم حينها ثقل تلك الجملة. فهمتها بعد أشهر، حين وجدت نفسي أقول الجملة نفسها لفتاة جديدة أخرى.

بدأت الأمور تتغيّر ببطء، بالطريقة نفسها التي تتغيّر بها الأمور دائمًا معي: ليس بضربة واحدة، بل بسلسلة من الخطوات الصغيرة، كل واحدة منها تبدو بريئة حين تُنظر إليها وحدها. عشاء عمل. مشروع «خاص» يتطلّب البقاء بعد ساعات الدوام. لمسة على الكتف تطول ثانية أكثر من اللازم. كنت ألاحظ، لكنني كنت أقنع نفسي، كما تعلّمت أن أفعل دائمًا، أن ما ألاحظه مبالغ فيه، أنّني أرى أشياء غير موجودة.

حين عرض عليّ ترقية — مسؤولية أكبر، راتب أعلى، اسمي على بعض الأعمال — كان الثمن واضحًا هذه المرّة، وإن لم يُقل بكلمات صريحة أبدًا. لم يطلب مني شيئًا مباشرة. لم يكن بحاجة لذلك. كان يكفي أن يترك الباب مفتوحًا، أن يقول جملًا مبهمة عن «الفتيات اللواتي يفهمن كيف تسير الأمور»، وأن ينتظر أن أفهم أنا الباقي.

وفهمت. بسرعة، وبمهارة اكتسبتها منذ الطفولة دون أن أريد: مهارة قراءة ما يريده الرجال قبل أن يقولوه. لم أقاوم كثيرًا. ليس لأنني أردت ما عرضه، بل لأنني تعلّمت، منذ زمن بعيد، أن مقاومتي لا تُغيّر شيئًا في النهاية سوى تأخير ما سيحدث لا محالة. الفارق الوحيد هذه المرّة أنني، للمرة الأولى، شعرت أنني أساوم على شيء بدل أن يُؤخذ منّي بلا مقابل.

حصلت على الترقية. حصلت على راتب أفضل. حصلت على اسمي مطبوعًا تحت صورة نُشرت في مجلّة محلّية. أخبرت أمي بالخبر، ففرحت، وقالت: «أنتِ تستحقّين كل هذا، أنتِ موهوبة.» ابتسمت وشكرتها، وفي داخلي، سؤال لم أستطع أن أطرده: هل حصلت على هذا بسبب موهبتي، أم بسبب شيء آخر لم أعد أعرف كيف أفصله عن موهبتي؟

استمر الأمر أشهرًا، حتى استقلت أخيرًا، دون أن أشرح لأحد السبب الحقيقي. أخبرت الجميع أنني وجدت فرصة أفضل. لم أكن أكذب تمامًا؛ الفرصة الأفضل كانت أن أبتعد عن مكان تعلّمت فيه درسًا لم أرغب في تعلّمه: أن العالم مستعدّ أن يفتح لي أبوابًا كثيرة، بشرط واحد لا يتغيّر مهما تغيّر الرجل الواقف خلف المكتب. لم يكن يريد عملي. كان يريد جسدي. ودفع ثمنه، بترقية، وراتب، واسم مطبوع تحت صورة. وأنا، من جهتي، دفعت ثمنًا آخر، أثقل بكثير، ولم أدركه إلا بعد سنوات: ثمن أن أصدّق، ولو للحظة، أن هذا هو الشكل الوحيد الممكن للنجاح.

الفصل العاشر

الاختيار الوهمي

بعد الاستوديو، عملت في أماكن أخرى، معظمها أفضل بكثير، بعضها بلا أي تعقيد على الإطلاق. لكنّ شيئًا في داخلي كان قد تغيّر: صرت أرى الأنماط قبل أن تتشكّل. صرت أعرف، من النظرة الأولى، أيّ الرجال سيحاول، وأيّهم لن يفعل، وأيّهم سيحتاج وقتًا أطول ليكشف عن نيّته. هذه المعرفة، بدل أن تحميني، جعلتني أدخل في علاقات ومواقف بوعي كامل، وكأنّ الوعي وحده يكفي لتحويل الاستغلال إلى اختيار.

في تلك السنة، بدأت علاقة مع رجل أكبر منّي بكثير، متزوّج، يملك نفوذًا في المجال الذي أعمل فيه. لم يخدعني. كان واضحًا منذ البداية بشأن ما يريده وما لا يستطيع أن يقدّمه. أعجبني وضوحه، غريب كما يبدو ذلك. بعد سنوات من الغموض والإيحاءات والأبواب نصف المفتوحة، كان وجود رجل يقول بصراحة «أنا لا أستطيع أن أعطيك أكثر من هذا» أشبه بهدية.

قلت لنفسي، وأنا أدخل تلك العلاقة بعينين مفتوحتين: «أنا من تختار هذه المرّة. لا أحد يخدعني. أنا أعرف الصفقة وأوافق عليها.» كرّرت هذه الجملة كثيرًا، في المرآة أحيانًا، وفي رأسي في أحيان أخرى، حتى صدّقتها، أو ظننت أنني صدّقتها.

لكنّ الوعي بلعبة ما لا يعني الخروج منها. كنت أعرف قواعد اللعبة، نعم، لكنني لم أخترعها، ولم أخترها من الأساس. اخترتُ فقط أن ألعبها بدل أن أُلعَب فيها دون علمي، وهذا فارق يبدو كبيرًا حين تعيشه، لكنه، من الخارج، لا يغيّر النتيجة كثيرًا: امرأة تمنح جسدها ووقتها ومشاعرها لرجل لن يمنحها شيئًا يدوم، ورجل يأخذ ما يحتاجه ويعود إلى حياته الكاملة الأخرى، تلك التي لا مكان لي فيها.

مرّة، في مطعم بعيد عن وسط المدينة اختاره بعناية لأنّ أحدًا لن يعرفه هناك، سألته: «هل تفكّر فيّ حين تكون معها؟» ابتسم ابتسامة رجل اعتاد هذا النوع من الأسئلة، ولم يجب مباشرة، بل قال: «لماذا تسألين أسئلة تعرفين أنها ستؤذيك؟» صمته كان الجواب الكافي. لم أغضب. لاحظت، بدل ذلك، أنني توقّعت هذا الجواب بالضبط، وأن توقّعي له هو ما جعلني أطرح السؤال أصلًا، ربما لأتأكّد أن الألم الذي أعرفه لا يزال في مكانه، مألوفًا، لا يفاجئني.

في عيد ميلادي ذلك العام، أرسل لي هدية باهظة عبر شخص آخر، دون أن يحضر بنفسه، لأنه كان مع عائلته في تلك الليلة. جلست وحدي أفتح الهدية، سوارًا ذهبيًّا جميلًا، وبكيت، ليس فرحًا، بل لأن الهدية نفسها كانت تلخيصًا لكل شيء: ثمنًا جميلًا لحضور غائب، تعويضًا أنيقًا عن رجل لا يستطيع أن يمنحني الشيء الوحيد الذي كنت أريده حقًّا، وهو أن يكون هناك، فعلًا، حين أحتاجه.

في إحدى الليالي، بعد أن غادر كعادته قبل منتصف الليل ليعود إلى بيته، جلست وحدي في شقّتي، أنظر إلى الهاتف الذي لن يرنّ حتى صباح الغد، وسألت نفسي، لأول مرّة بصدق: هل هذا حقًّا ما أريده؟ هل هذا اختيار، أم أنه الشكل الوحيد من العلاقات الذي أعرف كيف أتعايش معه دون أن أنهار؟

لم أجب على السؤال بصدق تلك الليلة. قلت لنفسي: «أنا أختار.» كذبت. لم أكن أختار بالمعنى الذي تعنيه الكلمة، بمعنى أن أقارن بدائل حقيقية وأنتقي أفضلها. كنت أختار الشكل الوحيد من الحب الذي يبدو لي مألوفًا، لأنه الشكل الذي يشبه كل شيء عرفته منذ الغرفة الزرقاء: قرب مشروط، بحضور جزئي، وغياب مؤجّل يعرف الجميع أنه قادم لا محالة.

الفصل الحادي عشر

الشقّة الصغيرة

في الرابعة والعشرين، انتقلت إلى شقّة صغيرة وحدي، بعيدًا عن بيت أهلي، بعيدًا عن أي أحد كان يعرف اسمي قبل أن أصبح ما أنا عليه. كانت شقّة متواضعة، غرفة واحدة وصالة صغيرة، لكنها كانت أول مكان في حياتي أستطيع فيه أن أغلق الباب دون أن يفتحه أحد غيري.

قضيت أول أسبوع أرتّبها بعناية غريبة، أعلّق الستائر بنفسي رغم أنني لا أجيد ذلك، أرتّب الكتب حسب الألوان لا حسب الموضوعات، لأن العين، لا العقل، هي من كانت تقرّر ترتيب حياتي في تلك الفترة. اشتريت نباتًا أخضر صغيرًا ووضعته قرب النافذة، وأخبرت نفسي أنه إن نجا هذا النبات، فسأنجو أنا أيضًا. مات بعد ثلاثة أشهر، رغم أنني سقيته بانتظام يقارب الهوس. لم أشترِ نباتًا آخر بعدها لسنوات.

في الأسابيع الأولى، شعرت بشيء أقرب إلى النشوة.

في الأسابيع الأولى، شعرت بشيء أقرب إلى النشوة. أستطيع أن أترك الأطباق دون أن يلومني أحد. أستطيع أن أبكي بصوت عالٍ دون أن أُسأل عن السبب. أستطيع أن أنام بلا ملابس إذا أردت، أن أمشي في الصالة في منتصف الليل، أن أصرخ في الوسادة دون أن يطرق أحد الباب قلقًا. كانت هذه الحرّية، في البداية، أشبه بهواء نقيّ بعد سنوات من التنفّس داخل غرفة مغلقة.

لكن الحرّية، اكتشفت بسرعة، لها وجه آخر لم يخبرني به أحد: الصمت. صمت الشقّة في الليل كان يختلف عن صمت بيت العائلة. في بيت العائلة، كان هناك دائمًا صوت ما في مكان ما: خطوات أمي، تلفاز أبي، ضحكة أخي. في شقّتي، كان الصمت كاملًا، لا يقاطعه شيء، حتى أصبح، بعد

أشهر، صوتًا في حدّ ذاته، صوتًا يذكّرني كل ليلة أنه لا يوجد أحد سواي هنا، وأنّ أحدًا لن يسمعني لو احتجت.

بدأت أدعو رجالًا إلى تلك الشقّة، ليس دائمًا من أرغب فيهم فعلًا، بل أحيانًا فقط لأملأ ذلك الصمت. كنت أفضّل أن أستيقظ بجانب شخص لا أحبّه على أن أستيقظ وحدي في سرير يشغله صمت لا حدود له. هذا، أعرف الآن، لم يكن رغبة، بل خوفًا يرتدي زيّ الرغبة، خوفًا من مواجهة نفسي في غرفة لا يشتّتني فيها أحد.

كنت أحفظ قواعد بسيطة لهذه اللقاءات: لا أحد يبقى حتى الصباح، لا أحد يعرف عنوان بريدي الإلكتروني، لا أحد يترك أغراضه. كانت هذه القواعد، في ظاهرها، علامة قوة واستقلالية. في باطنها، كانت أسوارًا أخرى، أضعها هذه المرّة بيدي، حول الشيء الوحيد الذي بقي لي: مساحتي الخاصّة، التي تعلّمت، منذ الغرفة الزرقاء، أنها الشيء الوحيد الذي يمكن أن يُنتهك إن سمحت لأحد بالبقاء طويلًا.

في إحدى الليالي، بعد أن غادر رجل لم أعد أذكر اسمه، جلست على أرض الصالة، ظهري إلى الحائط، وبدأت أبكي دون أن أعرف بالضبط علام أبكي. لم يكن حزنًا واحدًا محدّدًا. كان تراكمًا: الغرفة الزرقاء، والمرآة المكسورة، والوظائف التي دفعت ثمنها بجسدي، والرجل المتزوّج الذي يعود إلى بيته الحقيقي كل ليلة، وهذا الصمت الذي أملأه برجال غرباء لأنني لا أعرف كيف أملأه بنفسي وحدها.

جلست هناك حتى الفجر، أنظر إلى النافذة وهي تتحوّل من سواد إلى رمادي إلى ضوء خافت. فكّرت أنني، أخيرًا، حرّة. لا أحد يراقبني، لا أحد يملي عليّ شيئًا، لا أحد يغلق عليّ بابًا لا أستطيع فتحه. لكنني، في تلك اللحظة بالذات، أدركت الحقيقة الأثقل: كنت وحدي. لكنني لم أكن حرّة. الحرّية الحقيقية، كما بدأت أفهم بعد سنوات طويلة، ليست في أن تكون وحدك في غرفة تستطيع إغلاق بابها. هي أن تستطيع البقاء في تلك الغرفة، وحدك، دون أن يخيفك الصمت الذي يملؤها.

الفصل الثاني عشر

لقاء في معرض

في الخامسة والعشرين، دعتني صديقة إلى افتتاح معرض فنّي لمصوّر شابّ لم أسمع باسمه من قبل. ذهبت بلا حماس، حاملة كأس نبيذ لم أكن أنويّ إنهاءه، أتجوّل بين الصور المعلّقة بابتسامة مجاملة جاهزة، حين وقفت أمام صورة لامرأة عجوز تجلس عند نافذة، ضوء الشمس يقسم وجهها إلى نصفين، نصف مضاء ونصف في الظل.

سمعت صوتًا خلفي يقول: «هذه الصورة استغرقت منّي ثلاث ساعات انتظار، فقط لألتقط النور في اللحظة المناسبة.» التفتّ. رجل في أواخر الثلاثينيات، ملابسه بسيطة، لا شيء فيه يوحي أنه يحاول إثارة إعجاب أحد. قلت، بسخرية اعتدت أن أستخدمها كدرع: «ثلاث ساعات مقابل صورة واحدة؟ يبدو أنك رجل صبور، أو رجل لا يملك ما يفعله بوقته.» ضحك، ضحكة حقيقية غير محسوبة، وقال: «كلاهما صحيح، على الأرجح.»

تحدّثنا طويلًا تلك الليلة، عن التصوير، عن الضوء، عن الفرق بين التقاط صورة وفهم من فيها. لاحظت، بحذري المعتاد، أنه لم يسألني عن عملي بطريقة تبدو استعراضًا لذكائه، ولم يمدح مظهري ولو مرّة واحدة، رغم أنني، بحكم العادة، كنت أنتظر ذلك، أهيّئ نفسي لردّ مناسب. لم يأتِ المديح. جاء بدلًا منه سؤال بسيط: «ما الذي يجعلك تلتقطين صورة لشخص بدل شخص آخر؟» سؤال عن عملي، لا عن جسدي.

في نهاية الأمسية، طلب رقمي بطريقة مباشرة وغير متعجّلة: «أودّ أن أعرف رأيك في أعمالي القادمة، إن كنتِ لا تمانعين.» لم يكن هناك إيحاء، ولا نبرة تُشعرني أنني مدينة بشيء لقاء إعطائه الرقم. أعطيته، وأنا أراقب نفسي وكأنني أراقب شخصًا آخر يتّخذ قرارًا لم أعتد اتّخاذه: قرار الثقة، ولو بجرعة صغيرة جدًّا.

في الأسابيع التالية، اتّصل، فعلًا، ليسأل عن رأيي، لا ليطلب لقاءً في شقّته. تحدّثنا عن كتب، عن أفلام، عن آبائنا، عن أشياء لم أعتد أن أتحدّث عنها مع أحد. لاحظت أنّني، حين أكون معه، أضحك بطريقة أقلّ حسابًا، أقلّ تدريبًا. لاحظت أيضًا، بقلق متزايد، أنني بدأت أنتظر اتّصاله، وهذا الانتظار نفسه أخافني أكثر من أيّ رجل أذاني من قبل، لأنني لم أعرف كيف أتعامل مع الرغبة حين لا يصاحبها خطر واضح.

أخذني مرّة إلى معرض آخر، لفنّان يستخدم الضوء الطبيعي وحده، وسألني، ونحن نقف أمام لوحة كبيرة تصوّر امرأة تقف عند نافذة: «ماذا ترين فيها؟» أجبت، بسخريتي المعتادة: «امرأة تنتظر شيئًا لن يأتي، كما يفعل الجميع في اللوحات.» ضحك، وقال: «أنا أرى امرأة اختارت أن تقف عند النافذة، لا أن تُحبس بعيدًا عنها. هذا فارق كبير.» لم أجب، لكنّ الجملة بقيت معي أيامًا، تدور في رأسي كلّما مررت بنافذة في شقّتي.

مرّة أخرى، طبخ لي في شقّته، طبقًا بسيطًا تعلّمه من جدّته، وأخبرني عنها بحنان واضح، عن كيف كانت تغنّي وهي تطبخ، وكيف ماتت وهو في الثامنة عشرة، وكيف لا يزال يطبخ طبقها كلّما اشتاق إليها. لاحظت، وأنا أستمع، أنني لم أكن أقارن، كعادتي، بين لحظته هذه ولحظات مشابهة عشتها مع رجال آخرين. كنت، ببساطة، حاضرة، أستمع، دون حساب، ودون خطة هروب جاهزة في ذهني.

في إحدى الليالي، بعد مكالمة طويلة انتهت بصمت مريح بدل الوداع المعتاد، أغلقت الهاتف ووقفت أمام النافذة طويلًا، أفكّر فيه، وفي نفسي، وفي المسافة الغريبة بين الاثنين. لم أصدّقه. لم أصدّق أحدًا؛ هذا لم يتغيّر بين ليلة وضحاها لمجرّد أنّ رجلًا واحدًا كان لطيفًا لأسابيع قليلة. لكنه كان أول من جعلني أرغب في المحاولة، أول من جعلني أفكّر، ولو للحظة عابرة، أن الثقة قد لا تكون دائمًا مقدّمة للخيانة، وأن بعض الأبواب، ربما، تُفتح لتبقى مفتوحة.

الفصل الثالث عشر

الهروب الثاني

استمرّت علاقتنا سنة تقريبًا، سنة كانت الأهدأ في حياتي منذ أن أتذكّر. لم يكن مثاليًّا، ولم أكن مثالية، لكنّ شيئًا بيننا كان يشبه الأمان، ذلك الشعور الذي قرأت عنه في الكتب دون أن أصدّق أنه موجود فعلًا خارج الورق.

كلّما اقترب أكثر، كلّما شعرت بشيء يضيق في صدري، شيء يشبه الاختناق أكثر مما يشبه السعادة. لم أفهم حينها لماذا. كنت أظنّ أن المشكلة فيه، أنه يطلب أكثر ممّا أستطيع إعطاءه، رغم أنه لم يطلب شيئًا لم أعرضه أنا بنفسي. الحقيقة، التي فهمتها بعد سنوات، أن القرب نفسه كان يهدّد شيئًا فيّ: كل تلك الجدران التي بنيتها منذ الغرفة الزرقاء، وكل تلك الآليات التي أتقنتها لأحمي نفسي، كانت بلا فائدة أمام رجل لا يهاجمني. لم أعرف كيف أدافع عن نفسي ضدّ اللطف.

بدأت أبحث عن عيوب فيه، عيوب صغيرة، تافهة أحيانًا: طريقته في ترتيب الأكواب، تأخّره خمس دقائق عن موعد، جملة قالها ولم يقصد بها ما فهمته أنا. كنت أضخّم هذه الأشياء في رأسي، أحوّلها إلى أدلّة على أنه، مثل كل من قبله، سيتركني في النهاية، وأنّ الأفضل أن أستعدّ، أو أن أسبقه إلى القرار.

في إحدى المرّات، اقترح أن أنتقل للعيش معه. كان اقتراحًا بسيطًا، هادئًا، قاله وهو يغسل الأطباق دون أن ينظر إليّ حتى، وكأنه يخشى أن يرى في وجهي رفضًا يؤلمه. شعرت، حين سمعته، برعب حقيقي، رعب أكبر بكثير من أي تهديد واجهته من قبل، لأن هذا الاقتراح كان يعني بيتًا مشتركًا، حياة مرئية بالكامل، لا مساحة للاختباء فيها. قلت له إنني «أحتاج وقتًا للتفكير»، وهو، بصبره المعتاد، قال: «خذي كل الوقت الذي تحتاجينه.» لم يكن يعرف أنّ الوقت الذي كنت أحتاجه لم يكن للتفكير، بل للهرب.

في ليلة عادية، بلا شجار حقيقي، بلا سبب واضح يفهمه أحد غيري، قلت له إن العلاقة انتهت.

في ليلة عادية، بلا شجار حقيقي، بلا سبب واضح يفهمه أحد غيري، قلت له إن العلاقة انتهت. سألني: «لماذا؟ فجأة؟» لم أعطه جوابًا صادقًا. قلت شيئًا عن أنني «لست جاهزة»، عن أنني «أحتاج إلى وقت لنفسي». نظر إليّ طويلًا، بطريقة جعلتني أشعر أنه يرى أبعد ممّا أقوله، ثم قال: «حسنًا. لكنني لن أطارد أحدًا لا يريد أن يُطارَد.» غادر بهدوء، دون صراخ، دون توسّل، وهذا الهدوء نفسه كان أصعب ممّا توقّعت.

أغلقت الباب خلفه، ووقفت هناك طويلًا، يدي على المقبض، كأنني أنتظر أن يعود ويطرق، أن يثبت لي أنه، مثل كل من قبله، لن يستسلم بهذه السهولة. لم يعد. احترم قراري، وهذا بالتحديد ما لم أستطع احتماله: أنه احترمني كفاية ليصدّق أنني أعرف ما أريد، بينما أنا، في داخلي، كنت أتوسّل بصمت أن يرفض القرار الذي فرضته أنا عليه.

تركتُه. وقلت لنفسي: «أنا من اختار.» لكنني بكيت طوال الليل، على الأرض، بجانب الباب الذي أغلقته بيديّ، أحاول أن أفهم لماذا أهرب دائمًا من الشيء الوحيد الذي يشبه ما كنت أبحث عنه طوال حياتي. لم أجد جوابًا واضحًا تلك الليلة. وجدت فقط يقينًا مرًّا: أنني أعرف كيف أنجو من الأذى جيّدًا، لكنني لا أعرف، إطلاقًا، كيف أنجو من الحبّ.

الفصل الرابع عشر

المال والنسيان

بعد ذلك، في السابعة والعشرين، توقّفت عن التظاهر بأنني أبحث عن الحبّ. لم يكن قرارًا معلَنًا، بل انزلاقًا هادئًا نحو وضوح قاسٍ: إذا كانت العلاقات، في النهاية، ستنتهي بي دافعة ثمنًا ما، جسدي أو وقتي أو كرامتي، فلماذا لا أختار، على الأقل، الثمن الذي أعرفه مسبقًا؟

بدأت أقبل هدايا لم أكن أطلبها بوضوح، لكنني كنت أعرف قواعدها ضمنيًّا. رجال أكبر سنًّا، أكثر ثراءً، أقلّ حاجة إلى التظاهر بمشاعر لم تكن موجودة أصلًا. لم يكن هناك خداع في هذه العلاقات، بمعنى ما، وهذا ما جعلها، بشكل غريب، أقلّ إيلامًا من علاقات أخرى ادّعت الحبّ وأخفت الحساب. هنا، على الأقلّ، كان الجميع يعرفون الصفقة، ويوقّعون عليها بصمت.

صرت بارعة في هذا العالم. أعرف كم يستحقّ عشاء، وكم تستحقّ ليلة، وكم يستحقّ أسبوع من الرفقة الهادئة دون أسئلة. تعلّمت أن أضع حدودًا واضحة، حدودًا لم أستطع وضعها في طفولتي، لأنني، أخيرًا، كنت في موقع يسمح لي بذلك: موقع من تملك شيئًا يريده الآخرون، لا موقع من يُؤخذ منها شيء بالقوة أو بالخديعة.

كان هناك رجل بعينه، يكبرني بعشرين عامًا، يزورني مرّة كل أسبوعين، لا يطلب شيئًا سوى الحديث ثم الصمت المشترك، ثم يرحل تاركًا مبلغًا لم أطلبه على الطاولة. سألته مرّة لماذا يفعل هذا، فقال: «لأن الوحدة، في عمري، أغلى من أي شيء آخر يمكن شراؤه، وأنتِ تخفّفينها.» لم أعرف إن كنت أشفق عليه أم عليّ، لأننا، في النهاية، كنّا كلانا نشتري شيئًا واحدًا من بعضنا: توقّفًا مؤقّتًا عن الشعور بالفراغ.

كنت أضحك كثيرًا في تلك الفترة، ضحكًا ساخرًا، لاذعًا، أستخدمه سلاحًا في وجه أي رجل يحاول أن يخلط بين ما يدفعه وما يستحقّه فعلًا. قلت لصديقة، في إحدى الليالي، وأنا أعدّ المال الذي تركه أحدهم على الطاولة: «الرجال يقولون إنهم صيّادون. المضحك أنهم لا يعرفون أن الطريدة كانت ميتة منذ زمن.» ضحكت صديقتي بصوت عالٍ، ظنّت أنها نكتة. لم تكن نكتة. كانت أقرب ما وصلت إليه من وصف دقيق لحالتي.

في الظاهر، كنت أبدو متحكّمة تمامًا: امرأة تعرف قيمتها، لا تُخدع، لا تنتظر أحدًا، لا تبكي على باب أغلقته بنفسها. في الباطن، كنت أفرغ، شيئًا فشيئًا، من أي قدرة على الشعور بشيء لا يُقاس بالمال أو بالمقابل. حتى اللحظات التي كان يُفترض أن تكون حميمة، صارت معاملات محسوبة، تنتهي بحساب داخلي: هل استحققت هذا؟ هل أخذت أكثر ممّا أعطيت، أم أقلّ؟

في ليلة من تلك الليالي، بعد أن غادر رجل دفع أكثر من المعتاد ولم يطلب شيئًا استثنائيًّا لقاء ذلك، وقفت أعدّ المال على طاولة المطبخ، وشعرت، للمرة الأولى، ببرود لم أعرفه من قبل، برود لا علاقة له بالطقس. نظرت إلى الأوراق النقدية أمامي، ثم إلى يديّ، وفكّرت: صرت أعرف ثمني. هذا هو أسوأ ما تعلّمته. ليس أنني بعت شيئًا، بل أنني، أخيرًا، توقّفت عن التظاهر بأنّ هناك شيئًا فيّ لا يُباع.

الجزء الرابع

كل الرجال مرّوا من هنا

الفصل الخامس عشر

الكشف

ذهبت إلى الطبيب النفسي أخيرًا في الثامنة والعشرين، بعد أن أقنعتني صديقة أنّ الحديث مع غريب، غريب مدرّب على الاستماع دون حكم، قد لا يكون فكرة سيّئة. دخلت عيادته بابتسامتي المعتادة، تلك التي أستخدمها كبطاقة دخول لأي مكان، وقلت: «لا أعرف بالضبط لماذا أنا هنا. حياتي جيّدة. عملي جيّد. أنا فقط... لا أنام جيّدًا.»

لم يستعجلني. جلس يستمع، يدوّن ملاحظات قليلة، ويطرح أسئلة بسيطة لا توحي بأنه يحاول اصطيادي في تناقض. سألني عن طفولتي بطريقة عابرة، كأنها سؤال روتينيّ، فأجبت بجمل مقتضبة، معدّة سلفًا: «طفولة عادية. أسرة عادية.» لاحظ، على ما يبدو، الطريقة التي تسارعت بها كلماتي حين قلت «عادية»، لكنه لم يعلّق.

استمرّت الجلسات أسابيع. في كل مرّة، كنت أقترب قليلًا، ثم أتراجع، أغيّر الموضوع، أضحك على شيء لا يستحقّ الضحك، أسأله عن رأيه في أمور لا علاقة لها بي، بارعة كعادتي في تحويل الدفّة بعيدًا عن نفسي. كان يسمح لي بذلك، يتبعني في انحرافاتي، ثم يعيدني بلطف، بسؤال واحد بسيط،

إلى حيث كنّا.

في إحدى الجلسات، سألني عن الجلسة الزرقاء في أحلامي، لأنني ذكرتها عرضًا مرّة دون قصد. قال: «تحدّثتِ عن لون أزرق يتكرّر في كوابيسك. من أين يأتي، في رأيك؟» شعرت بيدي تتعرّق فجأة، وقلت، بسرعة أكبر من اللازم: «لا أعرف. ربما لون غرفتي القديمة.» لم يضغط أكثر، لكنه كتب شيئًا في دفتره، ونظرت إليه وهو يكتب، وتساءلت، بخوف صامت، ماذا لو عرف أكثر ممّا أظهرته له فعلًا.

في الجلسة الثامنة أو التاسعة، سألني عن علاقاتي، بصيغة محايدة

في الجلسة الثامنة أو التاسعة، سألني عن علاقاتي، بصيغة محايدة: «صفي لي كيف تبدأ علاقاتك عادة، وكيف تنتهي.» بدأت أتحدّث، بسخريتي المعتادة، عن أنماط رأيتها في نفسي، عن الرجال الذين مرّوا، عن كيف أنني «اخترت» كل واحد منهم بوعي كامل. توقّفت فجأة، في منتصف جملة، دون أن أخطّط لذلك، وسمعت نفسي أقول جملة لم أكن أنويها: «كل الرجال مرّوا من هنا.»

صمت قليلًا، ثم سألني: «مرّوا من أين، بالضبط؟» حاولت أن أجيب بخفّة، أن أحوّلها إلى نكتة أخرى، لكن صوتي خانني هذه المرّة. قلت، بصوت أخفت ممّا اعتدت: «من سريري. من ثقتي. لا أعرف. من كل مكان، على ما أظنّ.» لم يقل شيئًا لوقت طويل. ثم مدّ يده، لا ليلمسني، بل ليشير، بحركة بسيطة، إلى مكان قريب من صدري، وسأل: «وهنا؟»

لم أجب. لم أستطع. جلست في ذلك الكرسي، أمام رجل غريب لا يعرف عني شيئًا سوى ما قلته له في تسع جلسات، وشعرت بشيء يتصدّع في داخلي، صوت زجاج ينكسر من الداخل، ببطء، بطريقة لا يسمعها أحد سوى من يعيش داخل الجسم نفسه. وجّه إليّ السؤال الذي كنت أخاف منه أكثر من أي سؤال آخر.

السؤال الذي لم تطرحه أمي، حتى عندما بدأت أختفي تدريجيًّا داخل نفسي وتحت ملابسي. السؤال الذي لم يطرحه أي رجل مرّ من حياتي، لأنهم كانوا مشغولين بما يريدونه، لا بما فقدوه. السؤال الذي لم أجرؤ أنا نفسي على طرحه على نفسي بوضوح كافٍ حتى تلك اللحظة: كل الرجال مرّوا من هنا، نعم. لكن ماذا تركوا هناك؟ ماذا تركوا في ذلك المكان، داخلي، الذي أشار إليه بيده الهادئة، والذي لم أزره منذ زمن طويل جدًّا لدرجة أنني نسيت طريق العودة إليه؟

انفجرت في البكاء. لأول مرة في عيادته، لم أحافظ على ابتسامتي. لأول مرة، ترجّلت من على الحصان الذي ركبته منذ سنوات، الحصان الذي علّمت نفسي كيف أركبه قبل حتى أن أعرف كيف أسقط منه دون أن أنكسر. بكيت بطريقة بدائية، مؤلمة، شعرت فيها جسدي يتذكّر شيئًا كان يحاول نسيانه منذ ربع قرن.

لم يعطني منديلًا، ولم يقل شيئًا، ولم يحاول أن يُسكتني. جلس فقط، يسمع بكائي، يعطيني الكرامة التي لم يعطني إياها أحد من قبل: كرامة أن أنهار أمام شاهد دون خوف من أن يستخدم انهياري ضدي.

الفصل السادس عشر

ثلاث سنوات من الانتظار

قبل ثلاث سنوات من تلك الجلسة، وبعد سنوات من ابتعادنا، عاد. لم أتوقّع ذلك. كنت قد بنيت حياة تشبه السلام من بعيد: عمل مستقرّ، شقّة أكبر، دائرة أصدقاء لا تسأل كثيرًا. ثم اتّصل، بصوت لم يتغيّر، وقال: «رأيت معرضك الأخير. كان جميلًا. أردت فقط أن أخبرك.»

التقينا لمقهى، بحجّة الحديث عن الفن، وانتهى بنا الأمر نتحدّث حتى إغلاق المكان. لم يكن قد تغيّر كثيرًا: الهدوء نفسه، الطريقة نفسها في الاستماع قبل الحكم. أخبرني أنه لم يتزوّج، أنه فكّر فيّ كثيرًا، أنه لم يفهم يومًا لماذا انتهت العلاقة بهذا الشكل المفاجئ. لم أخبره الحقيقة الكاملة. قلت شيئًا عن «توقيت غير مناسب»، وهو، بلطفه المعتاد، لم يضغط لمعرفة المزيد.

استمرّينا نلتقي، بحذر من جهتي، بثقة هادئة من جهته. كان يعاملني وكأن السنوات التي مرّت لم تُغيّر شيئًا جوهريًّا فيّ، بينما أنا كنت أعرف، بألم صامت، أنّ نسخة أخرى منّي عاشت في تلك السنوات، نسخة رأت أشياء وفعلت أشياء لم يكن ليتخيّلها عنّي أبدًا.

مرّة، سألني عن سنوات غيابنا، بفضول ودّي لا يحمل اتّهامًا: «ماذا كنتِ تفعلين طوال هذا الوقت؟» ابتسمت ابتسامتي الجاهزة وقلت: «أعمل، أساسًا. أطوّر مشاريعي.» لم أذكر الرجل المتزوّج، ولا الليالي المدفوعة الثمن، ولا كل الطرق التي حاولت بها أن أنسى أنني تركته. شعرت بالذنب وأنا أصمت، لا لأنني فعلت شيئًا خاطئًا بالضرورة، بل لأنني أدركت أنّ الصورة التي يحبّها فيّ مبنية على جزء منّي فقط، جزء اخترته بعناية ليريه، بينما الجزء الآخر، الأثقل، بقي مخفيًّا كعادته.

في إحدى الليالي، أثناء عشاء هادئ في شقّته، لمس يدي بلطف، ونظر إليّ طويلًا، وقال: «لا تحتاجين أن تكوني مثالية معي. أنا لا أبحث عن نسخة مثالية منك.» كانت تلك الجملة تحديدًا، بين كل الجمل التي قالها، الأكثر إخافة لي. لأنها كانت تعني أنه يرى أن هناك شيئًا غير مثالي فيّ، وأنه يقبله رغم ذلك، وهذا القبول، الذي كنت أبحث عنه طوال حياتي، كان أكثر ممّا أعرف كيف أستقبله دون أن أهرب.

في إحدى الأمسيات، بعد شهور من هذا اللقاء المتكرّر الحذر، سألني بمباشرة غير معتادة منه: «ما الذي تخافين منه بالضبط؟ لأنني أشعر أنك تقتربين وتبتعدين في الوقت نفسه، وأنا لا أفهم القاعدة.» لم يكن هناك غضب في صوته، فقط حيرة صادقة رجل يحاول أن يفهم امرأة تحبّه بطريقتها المشوّهة الخاصّة.

لم أستطع أن أشرح. كيف أشرح لرجل لطيف أن خوفي ليس منه، بل من كل ما تعلّمته قبل أن ألتقيه؟ كيف أخبره أن القرب نفسه، مهما كان آمنًا، يطلق في داخلي إنذارًا قديمًا، صوتًا يقول: «هذا لن يدوم، فلماذا تستثمرين فيه؟» بدلًا من الشرح، صمتّ، ثم قلت جملة سطحية عن أنني «معقّدة»، وضحكت ضحكة خفيفة أنهيت بها الموضوع.

في تلك الليلة تحديدًا، وقف عند باب شقّتي، ونظر إليّ طويلًا، وقال: «سأنتظر. حتى تقرّري ما تريدينه فعلًا.» كان صوته هادئًا، لم يكن فيه توبيخ، فقط التزام، شيء لم أتعوّد أن أسمعه من أحد قبله. سأنتظر. كلمات بسيطة، حملت وزن سنوات.

قلت له، بسرعة، بصوت لم يكن صوتي الحقيقي بل صوت خوفي يتحدّث بالنيابة عنّي: «لا تنتظر.» لم أسمع صدى كلماتي قبل أن أرميها في وجهه. لا تنتظر. كأنني أمنحه الإذن ليرحل، كأنني أخبره أن الالتزام هو هدر للوقت معي. رحل. أغلقت الباب، وسمعت خطواته تنزل السلالم، وشعرت للحظة براحة مألوفة، تلك الراحة الكاذبة التي أشعر بها كلّما دفعت شخصًا جيدًا بعيدًا قبل أن يكتشف كم أنا مكسورة. كانت براحة المعتاد، راحة من تعرف أن تكوني وحيدة أسهل من أن تكوني محبوبة.

لم أعرف حينها أن تلك الكلمات، «لا تنتظر»، ستكون آخر ما أقوله له لثلاث سنوات كاملة. لم أعرف أن صمت ثلاث سنوات سيكون أثقل من أي شيء قلته له من قبل. كان يجب أن أستمع لنفسي، لا للصوت الذي كان يتكلّم بلسانها، للصوت القديم، صوت الطفلة من التاسعة التي تعلّمت أن الحب = الألم، وأن الالتزام = الخيانة المؤجّلة.

في الأسابيع التي تلت، حاولت أن أقنع نفسي أنني فعلت الشيء الصحيح. أن إطلاق سراح شخص يحبّك أفضل من أن تدعيه يعاني انتظارًا لا نهائيًّا. لكن في ليالي الأرق، عندما كان الهاتف صامتًا، كان جزء منّي يتمنّى أنه لم يستمع لي. يتمنّى أنه عاد إلى الباب، دفعها مرّة أخرى، وقال: «أنا لن أتركك وحيدة.» لكنه لم يفعل. وكانت تلك هي الحقيقة الأخيرة التي احتجت أن أتعلّمها: لا يمكنك إجبار أحد على البقاء، حتى لو كان ذلك الأحد هو آخر شخص يستحقّ الرحيل.

الفصل السابع عشر

المكالمة الأخيرة

بعد جلسة الطبيب النفسي تلك، الجلسة التي سألني فيها ذلك السؤال البسيط والثقيل، «وهنا؟»، عدت إلى بيتي في حالة لم أعرفها من قبل: صحوة مؤلمة، أشبه بضوء قويّ يُضاء فجأة في غرفة اعتادت عيناي على عتمتها.

فتحت صندوق الصور القديمة نفسه الذي فتحته قبل أشهر، ووجدت، بين الصور، ورقة صغيرة كتب عليها رقم هاتف، رقمه، من زمن قديم لم أحذفه من هاتفي القديم قط، رغم أنني غيّرت أجهزة كثيرة منذ ذلك الحين. جلست طويلًا، أنظر إلى الرقم، أفكّر في كل الطرق التي تخيّلت بها هذه المكالمة عبر السنوات، وفي كل المرّات التي منعت نفسي فيها من إجرائها.

اتّصلت. يداي كانتا ترتجفان بطريقة لم أشعر بها منذ المراهقة. رنّ الهاتف مرّة، مرّتين، ثلاث مرّات. تخيّلته ينظر إلى الشاشة، يرى اسمي، يتردّد كما ترددت أنا آلاف المرّات في السنوات الثلاث الماضية. استمرّ الرنين حتى وصل إلى البريد الصوتي، صوته المسجّل، أهدأ ممّا تذكّرت، يقول: «لست متاحًا الآن، اترك رسالة.»

لم أترك رسالة. أغلقت الهاتف، ثم أعدت الاتّصال بعد نصف ساعة، ثم مرّة أخرى في اليوم التالي. لم يردّ في أيّ من المرّات. لم يكن هذا غضبًا، أعرف ذلك، لأن الرجل الذي عرفته لم يكن يومًا شخصًا ينتقم بالصمت. كان، ببساطة، قد فعل أخيرًا ما قلته له بنفسي أن يفعله: توقّف عن الانتظار.

بحثت عنه على مواقع التواصل، شيء لم أسمح لنفسي به من قبل. وجدت صورة حديثة له، يبتسم في حفل ما، بجانب أشخاص لا أعرفهم. لم يكن هناك ما يشير إلى امرأة في حياته، لكنّ هذا لم يخفّف من الألم؛ الألم لم يكن غيرة، بل شيئًا أعمق: رؤية دليل حيّ أن الحياة استمرّت بدوني، بسلاسة،

وكأنني لم أكن سوى فصل قصير انتهى وطُوي.

جلست عند النافذة تلك الليلة، أراقب الشارع فارغًا تحت مصباح متقطّع الضوء، أفكّر في كل الجمل التي كنت سأقولها لو ردّ: «كنت مخطئة. لم أكن أعرف كيف أحبّك دون أن أخاف. أنا آسفة.» جمل بسيطة، متأخّرة بثلاث سنوات كاملة، لا تعني شيئًا الآن سوى أنها جاءت متأخّرة.

لم يردّ. لم يعد ينتظر. ولم أشعر بالراحة الكاذبة المعتادة التي أشعر بها كلّما ابتعد عنّي أحد — تلك الراحة التي تأتي مع الاعتقاد أن الانفصال كان حتمًا، أنه كان يجب أن ينتهي هكذا. شعرت بشيء آخر، أثقل، أصدق: أنني، هذه المرّة، لم أخسر شيئًا بسبب حادثة من الأساس سيّئة، بل خسرته لأنني أنا من أفسدت شيئًا جميلًا، نادرًا، من النوع الذي قد لا يأتي مرّة أخرى.

جلست على الأرض، في ظلام غرفتي، أنظر إلى هاتفي، أحدّق في رقمه، في محادثاتنا القديمة، كلمات كتبتها بيده ولم أحذفها يومًا. قرأت رسالة من ثلاث سنوات: «أنتِ الشخص الوحيد الذي أريد الانتظار له. كم يلزم الانتظار؟» كتبت ردًّا ولم أرسله: «أنا آسفة. أنا آسفة لأنني لا أستطيع أن أكون ما تستحقّه. آسفة لأنني خائفة. آسفة لأن حبّك يخيفني أكثر من أيّ رجل آخر.» حذفت الرسالة. ثم كتبتها مرّة أخرى. ثم حذفتها مجدّدًا. هذا ما كنت أفعل لثلاث سنوات كاملة: أكتب وأحذف، أقترب وأهرب.

أدركت الآن أن الانتظار يستنزف الروح. أدركت أن هناك حدًّا لما يستطيع رجل واحد أن يتحمّله من صمت، من عدم يقين، من محاولة حبّ امرأة لا تحبّ نفسها بما يكفي لتقبل أن يحبّها أحد. أدركت أنني لم أخسره بسبب رجل آذاني أو امرأة في حياته، بل خسرته بسبب امرأة، أنا نفسي، لم تصدّق يومًا أنها تستحقّ أن يبقى أحد.

وهذا، ربما، كان أصدق درس تعلّمته: أن الحبّ وحده ليس كافيًا. يجب أن تحبّي نفسك أيضًا، أو على الأقل أن تحاولي. وأن تثقي أن من يحبّك يفعل ذلك لسبب حقيقي، لا لأنه مخطئ أو ساذج، بل لأنه رأى فيك شيئًا لم تري أنتِ نفسك بعد.

الفصل الثامن عشر

زيارة الأم

مرضت أمي في ذلك الشتاء، مرضًا لم يكن خطيرًا بما يكفي ليُقلق، لكنه كان كافيًا ليُذكّرني أنها تكبر، وأنّ عدد المرّات المتبقّية التي سأجلس فيها معها في المطبخ نفسه ليس لا نهائيًّا. زرتها كل أسبوع، أحمل معي فاكهة لا تشتهيها، وأحاديث سطحية عن الطقس والعمل، أيّ شيء يملأ الصمت بيننا دون أن يقترب من الأشياء الحقيقية.

في إحدى تلك الزيارات، وجدت أبي في الحديقة الصغيرة خلف البيت، يعتني بنباتات لم يكن يهتمّ بها من قبل. جلست بجانبه، وسألته عن حاله، فقال، بصوته الهادئ المعتاد: «أخاف عليها. أخاف أن أفقدها ولم أخبرها يومًا كم أحبّها بما يكفي.» نظرت إليه، وفكّرت أن هذا الرجل، الذي عرفته دائمًا صامتًا بعيدًا، كان يحمل في داخله حبًّا لم يعرف كيف يُظهره، تمامًا كما لم يعرف كيف يرى ما كان يحدث لابنته منذ سنوات طويلة. لم ألمه في تلك اللحظة. فهمت، للمرّة الأولى، أن صمته لم يكن دائمًا غيابًا متعمّدًا، بل عجزًا، نوعًا من العجز الذي ورثته أنا أيضًا بطريقتي الخاصّة.

في تلك الزيارة تحديدًا، وجدتها تجلس عند النافذة نفسها التي كانت تجلس عندها دائمًا،

في تلك الزيارة تحديدًا، وجدتها تجلس عند النافذة نفسها التي كانت تجلس عندها دائمًا، تنظر إلى الشارع بعينين متعبتين، لكن ما زال فيهما ذلك البريق الحذر الذي عرفته منذ الطفولة، بريق من تراقب دون أن تتدخّل. جلست بجانبها، وبدأنا نتحدّث عن أشياء لا تهمّ، حتى سألتني، بلا مقدّمات: «هل تتذكّرين البيت القديم؟ بيت الصيف؟»

تجمّد شيء في صدري. أجبت بحذر: «قليلًا. لماذا؟» قالت إنها كانت تفكّر فيه مؤخّرًا، في تلك الأيام، في «الجيران اللطفاء» الذين استأجروا البيت المجاور ذلك الصيف. سألتني، بصوت لا يحمل اتّهامًا ولا شكًّا واضحًا، مجرّد فضول عابر لامرأة تسترجع ذكريات: «كنتِ تقضين وقتًا معهم، أليس كذلك؟ هل كانوا لطفاء معكِ فعلًا؟»

للحظة، شعرت أن الباب الذي أُغلق منذ أربعة وعشرين عامًا يهتزّ قليلًا على مفصّلاته. نظرت إلى وجهها، أبحث عن علامة تدلّ على أنها تعرف شيئًا، أنها تسأل لأنها، في مكان ما من ذاكرتها الأمومية، لاحظت شيئًا لم تجرؤ على مواجهته يومًا. لم أجد يقينًا. وجدت فقط امرأة عجوز تسترجع ذكريات عشوائية، لا تعرف أنّ سؤالها البريء يفتح في داخل ابنتها بابًا لم تُغلقه الأربعة والعشرون عامًا بالكامل.

فكّرت، للحظة، أن أقول شيئًا. أن أنطق أخيرًا الجملة التي حملتها منذ التاسعة من عمري، أن أعطي لأمّي فرصة أخيرة لتكون الأمّ التي احتجتها في تلك الغرفة الزرقاء ولم تكن. لكنني نظرت إلى وجهها المتعب، إلى يديها اللتين بدأتا ترتجفان قليلًا من المرض، وفكّرت: ما الفائدة الآن؟ ما الذي سيتغيّر سوى أن أضيف إلى تعبها عبئًا لا تستطيع حمله في هذا العمر؟

قلت: «كانوا لطفاء، نعم. لا أذكر الكثير.» صدّقتني، أو تظاهرت بذلك، وعادت إلى الحديث عن الطقس. جلست بجانبها بقية المساء، أراقبها وهي تحتسي الشاي، وأفكّر في كل الطرق الممكنة التي كان يمكن أن تسير بها هذه المحادثة لو كنت أشجع، أو لو كانت هي، منذ ذلك الحين، أكثر فضولًا بشأن ابنتها الصامتة فجأة.

قبل أن أغادر، وقفت عند الباب، ونظرت إليّ نظرة أطول من المعتاد، وقالت: «أنتِ بخير؟» سؤال بسيط، اعتيادي، من النوع الذي تسأله كل أمّ ابنتها عند الوداع. كان لديها فرصة أخيرة هناك، لحظة كنت أنتظرها لسنوات، لحظة كان يمكن أن تقول فيها: «أنا أعرف أنّ شيئًا سيّئًا حدث. أنا آسفة لأنني لم أستطع حمايتك.» لكنها لم تقل ذلك. قالت فقط: «أنتِ بخير؟»

قلت: «نعم.» كذبت على أمي للمرّة الألف، ربما، منذ ذلك الصيف. لكن هذه الكذبة كانت مختلفة قليلًا: لم أكن أحمي نفسي هذه المرّة بقدر ما كنت أحمي هي، أحمي شيخوختها من وزن لا تستطيع حمله، أحمي براءتها المتأخّرة في أن تكون أمًّا لا بتقصير، بل بحد من العجز والخوف. أغلقت الباب خلفي، ونزلت السلالم، وفكّرت أن هذا الكذب الصغير، المتكرّر، البريء في الظاهر، هو نفسه الصمت الذي بدأ منذ كنت في التاسعة: طريقة كلّ منّا في حماية الأخرى من حقيقة لا تستطيع أيّ منّا احتمال وزنها وحدها.

في الشارع، توقّفت قليلًا، وأدركت أنني لم أعد أنتظرها لتقول شيئًا. لم أعد أنتظرها لتطلب مني أن أخبرها. كبرنا معًا، في صمت، من طريقين مختلفين: هي اختارت عدم السؤال، وأنا اخترت عدم الإجابة. وربما كان هذا هو الحب الوحيد الذي استطعنا أن نعطيه لبعضنا البعض حينها: احترام حدود الصمت، حتى لو كان ذلك الصمت يقتلنا ببطء.

الفصل التاسع عشر

حفل التخرّج

قبل عام تقريبًا، حضرت حفل تخرّج أخي من الجامعة. كان قد كبر دون أن أنتبه، كما يكبر كل من نبتعد عنهم قليلًا: فجأة، ودفعة واحدة، لا بالتدريج الذي نتخيّله. وقف على المنصّة يستلم شهادته، يبتسم تلك الابتسامة نفسها التي كان يبتسمها وهو طفل يبني قلاعًا من الرمل، لا يزال يعرف كيف يبدأ من جديد دون أن يحمل في داخله كل هذا الثقل الذي أحمله أنا.

جلست في الصفوف الخلفية، بين أهالٍ يصفّقون بحماس لأبناء وبنات لا أعرفهم، وشعرت بفخر حقيقي، غير محسوب، من النوع الذي لم أشعر به تجاه نفسي منذ زمن طويل. كان أخي سعيدًا، بسيطًا في سعادته، لم تلوّثه بعد أيّ من الأشياء التي لوّثتني، أو هكذا افترضت، دون أن أعرف يقينًا ماذا يحمل هو من ثقل خاصّ به، ثقل لم يشاركه معي يومًا لأنني لم أشاركه أنا معه.

بعد الحفل، التقطنا صورًا عائلية، أمي بينه وبيني، تبتسم ابتسامة حقيقية نادرة، وأبي يقف خلفنا، فخورًا بصمته المعتاد. نظرت إلى أخي وهو يعانق أصدقاءه، يضحك بصوت عالٍ، يخطّط بحماس لرحلة سيقوم بها قبل بدء عمله الجديد، وفكّرت في نفسي في عمره: اثنان وعشرون عامًا. في ذلك العمر، كنت قد بدأت أعمل في الاستوديو، أدفع الثمن الذي عرفت الفصل السابق قصّته، أتعلّم أن أضحك على أشياء ليست مضحكة، أن أفصل جسدي عن ذاتي بمهارة تشبه السحر الأسود.

فكّرت في الطفلة التي كنتها، تلك التي ركضت في البحر بلا خوف، وقارنتها بنفسي في اثنين وعشرين، ثم بأخي الآن في العمر نفسه تقريبًا، وشعرت بحزن عميق، ليس على نفسي فقط، بل على تلك النسخة المحدّدة منّي التي توقّفت عن الوجود في مكان ما، دون جنازة، دون وداع، فقط اختفت، واستُبدلت بامرأة تعرف كيف تنجو لكنها نسيت كيف تعيش ببساطة.

سألته، ونحن نقف في طابور التقاط الصور: «هل تخاف من المستقبل؟» نظر إليّ بدهشة، وقال: «لماذا أخاف؟ كل شيء أمامي سيكون جيّدًا، أنا متأكّد.» ضحكت، وقلت: «هذا جميل. لا تفقد هذا اليقين أبدًا.» لم يفهم تمامًا معنى كلامي، لكنه ابتسم وعانقني. تمنّيت، بصمت، أن يبقى يقينه هذا سليمًا لأطول فترة ممكنة، وأن لا يكتشف يومًا كم هي هشّة الحياة التي يظنّها مضمونة.

اقترب منّي أخي، وضع ذراعه حول كتفي،

اقترب منّي أخي، وضع ذراعه حول كتفي، وقال: «أنتِ من أكثر من أفتخر به في حياتي، أتعرفين ذلك؟» ابتسمت، وقلت: «وأنا أيضًا فخورة بك.» لم أخبره كم كانت تلك الجملة تؤلمني بطريقة لا يفهمها، لأنه، ببساطة، لا يعرف أنّ الأخت التي يفتخر بها دفعت لتصل إلى هذا المكان ثمنًا لم يدفعه هو، ولن يعرف يومًا كم كان الطريق مختلفًا بيننا، رغم أننا نشأنا تحت السقف نفسه، وربّتنا اليدان نفسهما.

في طريق العودة، جلست في السيارة أنظر من النافذة، والمدينة تمرّ سريعة، أضواؤها تتداخل مع دموع لم أدعها تسقط. كان سعيدًا. كنت فخورة. وحزينة في آن معًا، بطريقة غريبة تخلط الشعور الثلاثة بلا فاصل واضح.

تذكّرت نفسي في عمره: اثنان وعشرون عامًا، جسد يعرف أشياء لا يجب أن يعرفها في تلك السنّ، عقل يقسّم نفسه إلى نسخ مختلفة لتحتمل ما يحدث كل يوم. كنت في الاستوديو وقتها، أتعلّم أسماء رجال جدد كل أسبوع، أتعلّم كيف أضحك بصوت عالٍ على نكات لا تضحك، أتعلّم كيف أجعل جسدي مرآة لما يريدونه بدل أن أكون فقط موجودة. في عمره، كان يجب أن أكون في الجامعة، أختار تخصّصًا، أحضّر لنفسي مستقبلًا. بدلًا من ذلك، كنت أختار عطرًا يعجب به الرجل الأخير الذي دخل غرفتي.

أمي جلست بجانبي في السيارة، لم تتحدّث كثيرًا، فقط تحدّقت في الطريق، تضغط على المقود بحنين لا أعرفه. سألتني: «هل أنتِ بخير؟» كان السؤال عاديًّا جدًّا، لكن شيئًا في طريقة سؤالها جعلني أشعر أنها تعرف، بطريقة ما، أنني لست بخير، وأنها تسأل وهي تعرف الجواب مسبقًا. قلت: «نعم. فقط متعبة.» أومأت، ولم تسأل تفاصيل، كما لو أنها تحترم الحدود التي وضعتها بيننا، الصمت الذي اخترناه معًا.

نهضت أخي من مقعده الخلفي، وضع رأسه على كتفي، نام بسلام الذي لم أعرفه يومًا. حسدته بهدوء. حسدته على عدم معرفته، على براءته التي ما زالت سليمة، على أنه يستطيع أن ينام في السيارة دون أن يراقب من يقود، دون أن يتفقّد الأبواب مرتين قبل النوم، دون أن يحتفظ بجزء منه مستيقظًا دائمًا، في الحراسة.

في البيت، وضعت رأسي على الوسادة، ولم أنم. فقط جلست هناك، في الظلام، أسمع أصواتهم في الغرفة الأخرى يتحدّثون عن حفل التخرّج، يخطّطون لرحلته، يحدّثون أبي عن سعادتهم. وشعرت بالوحدة بطريقة لم أشعر بها حتى عندما كنت وحيدة فعلًا. الوحدة الخاصّة بمن يعيش تحت السقف نفسه لكنه في عالم مختلف تمامًا، عالم لا يستطيع أحد إدخالي إليه، مهما حاول.

الفصل العشرون

المرآة الكبيرة

بعد حفل التخرّج بأسابيع، وبعد الجلسة التي سألني فيها طبيبي ذلك السؤال الذي لا يزال يتردّد في رأسي، «وهنا؟»، قرّرت، بدافع لم أفهمه تمامًا حينها، أن أشتري مرآة كبيرة لشقّتي. لم أفعل ذلك منذ سبعة عشر عامًا، منذ ليلة المرآة المكسورة، حين تعلّمت أن أتعامل مع نفسي بالتجزئة، قطعة قطعة، خوفًا من الصورة الكاملة.

وضعتها في غرفة النوم، مقابل السرير، وتركتها مغطّاة بقماش أبيض لأيام، أمرّ بجانبها كل صباح دون أن أجرؤ على كشفها، كأنها كائن نائم لا أريد إيقاظه. في كل مرّة كنت أنظر إليها مغطّاة، كنت أفكّر أنّ الأسهل هو أن أعيدها، أن أعتذر للبائع، أن أستمرّ في التجزئة التي أتقنتها طوال هذه السنوات.

اتّصلت بسلمى، صديقتي من أيام الاستوديو، التي لم أكلّمها منذ سنوات، فقط لأسمع صوتًا مألوفًا. أخبرتها عن المرآة المغطّاة، فضحكت بحنان وقالت: «تعرفين، هذا أشبه بك تمامًا: تشترين المواجهة، ثم تغطّينها بقماش أبيض لأسبوع.» ضحكت معها، وشعرت، للمرّة الأولى منذ زمن، أن هناك من يعرفني بما يكفي ليسخر منّي بمحبّة لا بقسوة.

في ليلة لم أستطع فيها النوم، بعد أن اتّصلت به ولم يردّ، بعد أن جلست عند النافذة أراقب الشارع الفارغ، نهضت أخيرًا، ومشيت نحو المرآة، ووقفت أمامها، ويدي على القماش الأبيض. تردّدت طويلًا. ثم، بحركة واحدة، بلا تفكير زائد يمنحني فرصة للتراجع، سحبت القماش.

وقفت أنظر. لم أهرب هذه المرّة، ولم أركّز على جزء واحد كعادتي: عين، أو فم، أو خصلة شعر. نظرت إلى الصورة كاملة، كما هي، بلا رحمة وبلا قسوة أيضًا. امرأة في الثالثة والثلاثين، عيناها كبيرتان متعبتان، خطوط رفيعة حول الفم من كثرة الابتسامات التي لم تكن كلها صادقة، جسد حمل أكثر ممّا يُفترض أن يحمله جسد واحد، ووقف رغم ذلك، حتى الآن، على قدميه.

بحثت، كعادتي القديمة، عن الطفلة التي كانت تقف خلفي في كل مرآة نظرت إليها طوال حياتي. لم أجدها هذه المرّة في المكان المعتاد، خلف كتفي، تراقب بخوف. وجدتها، بدلًا من ذلك، بداخلي، في مكان ما تحت الجلد، لا تزال حيّة، لكنها لم تعد منفصلة عنّي كما كانت. لم تعد شبحًا يطاردني. كانت جزءًا منّي أخيرًا، جزءًا لم أعد بحاجة إلى إخفائه أو مراقبته من بعيد.

وقفت هناك طويلًا، حتى بدأ الضوء الأول للفجر يدخل من النافذة، يخلط ظلّي بالمرآة بطريقة تجعل الحدّ بينهما غير واضح. رأيت امرأة. لم تكن الطفلة التي ركضت في البحر بلا خوف، تلك رحلت منذ زمن بعيد ولن تعود أبدًا. كانت هناك، في تلك اللحظة، قبل أن يقول الرجل الأول «أنتِ جميلة»، قبل أن تسقط المرآة الأولى، قبل أن أتعلّم أن أقسّم نفسي إلى أجزاء قابلة للتجميع. لكن تلك النسخة منّي لم تعد موجودة، لا في هذه المرآة ولا في أي مكان آخر.

لكنها لم تكن الغريبة أيضًا، تلك التي كانت تنظر إليّ من كل مرآة كسرتها أو تجنّبتها طوال سنوات. تلك الغريبة التي كانت تحاول كل صباح أن تبني شخصيات جديدة من لا شيء، تلك التي كانت تتحرّك كدمية في يد الآخرين، ترقص على موسيقاهم، تبتسم على أوامرهم. كانت تلك أيضًا غير موجودة الآن، أو على الأقل، كانت تتلاشى ببطء.

كانت أنا. امرأة في الثالثة والثلاثين، عيناها كبيرتان متعبتان، لكن فيهما شيء جديد لم يكن موجودًا قبل: معرفة. معرفة أنني عشت. معرفة أن كل ندبة في جسدي تحكي قصّة، وأن القصّة ليست قصّة ضحية فقط، بل قصّة امرأة استطاعت، بطريقة ما، أن تبقى واقفة. كاملة، متعبة، مليئة بالندوب

التي لا تُرى، لكنها، للمرّة الأولى منذ زمن طويل جدًّا، لم تكن غريبة عنّي. كنت أتعرّف عليها أخيرًا. كنت أنا.

ضحكت. ضحكة خفيفة، لا تحتاج إلى سبب. ضحكة لأنني وقفت هناك، مع مرآة كبيرة، وأخيرًا، لم أهرب.

الجزء الخامس

أنا

الفصل الحادي والعشرون

الاسم

في الجلسة التالية مع طبيبي النفسي، دخلت وأنا أحمل شيئًا مختلفًا هذه المرّة، ثقلًا أخف ممّا اعتدت حمله إلى تلك الغرفة. جلست في الكرسي نفسه، لكنني لم أثنِ ساقي بالطريقة الدفاعية التي كنت أفعلها دائمًا، لم أضع يدي على ركبتي كأنني أستعدّ للهروب. جلست، وببساطة، انتظرت.

لم أبدأ بابتسامتي المعتادة، ولا بسخرية أفتتح بها الجلسات لأشتري وقتًا قبل أن أضطرّ للحديث عن أي شيء حقيقي. بدلًا من ذلك، قلت: «أريد أن تعرف اسمي الحقيقي. اسمي قبل كل هذا. قبل أن أصبح امرأة أراقب نفسها من بعيد.»

سألني: «هل تتذكّرينه؟» قلت: «نعم. لكنني لم أقله بصوت عالٍ منذ سنوات طويلة. كأنّ قول الاسم يعيدني إلى امرأة أخرى، امرأة ما زالت موجودة في مكان ما، أنتظر أن أقرّر إن كنت سأعود إليها أم لا.»

قال: «حسنًا. قولي الاسم.» كان هناك إصرار هادئ في صوته، لا إجبار، مجرّد دعوة واضحة للخروج من المجهول.

أخذت نفسًا عميقًا. شعرت بقلبي يتسارع، وكأنني على وشك أن أفعل شيئًا محظورًا، شيئًا لا يمكن التراجع عنه. لأنّ قول الاسم بصوت عالٍ أمام شاهد، أمام رجل لا يعرفني، معناه أنني أعترف، أنني أحتلّ المساحة التي أستحقّها، أنني أتوقّف عن كوني فقط «أنا» بلا اسم، بلا هوية محدّدة.

قلت: «ليلى. اسمي ليلى.»

كانت الكلمة بسيطة، لكنّ تأثيرها لم يكن بسيطًا. شعرت بشيء ينقسم في داخلي، خطّ فاصل بين ما قبل هذه الجملة وما بعدها. ليلى. امرأة. ليست «أنا»، ليست رقم هاتف يختاره رجل، ليست وجه تصوّره الكاميرا. ليلى. اسم له معنى: الليل، الظلام قبل الفجر، الساعة التي تفصل بين يوم انتهى ويوم لم يبدأ بعد.

سألني: «كيف تشعرين بهذا؟ بقول الاسم؟» بحثت عن جواب. لم أجد كلمات دقيقة. قلت: «كأنني أعترف بشيء لم أستطع الاعتراف به لنفسي حتى الآن: أنني كنت موجودة، حقيقية، لم أكن مجرّد صدى لما فعله الآخرون بي. ليلى كانت هناك، قبل كل هذا، وهي ما زالت هنا الآن، حتى لو اضطُرّت لترتدي أقنعة كثيرة للبقاء على قيد الحياة.»

جلسنا في صمت بعدها، لا صمت ثقيل، بل صمت له وزن مختلف، صمت من تقول اسمها أمام شاهد وتكتشف أن الكلمة لم تهدم الأرض، أن الاسم نفسه، مجرّد صوت، يحمل قوة أكثر من أي شيء فعلته من قبل.

الفصل الثاني والعشرون

الصورة الأخيرة

بعد تلك الجلسة، أخذت كاميرتي للمرّة الأولى في أسابيع. لم أخرج لالتقاط صور للآخرين، بل جلست أمام مرآتي الكبيرة، الكاميرا في يدي، وحاولت أن التقط صورة لنفسي. ليس صورة معتنى بها، بملابس انتقيتها بحذر، بإضاءة محسوبة. صورة بسيطة، حقيقية، بلا قناع.

الاستقرار لم يكن سهلًا. كنت أضع الكاميرا، ثم أرفعها، أنظر إلى نفسي، ثم أرفع الكاميرا مرّة أخرى. كنت أبحث عن الزاوية المناسبة، الضوء المناسب، اللحظة المناسبة. عادات قديمة من سنوات قضيتها أبحث عن الطريقة المثالية لتصوير الآخرين، الطريقة التي تجعل كل وجه يبدو أفضل ممّا هو عليه. لكنني هذه المرّة أردت الحقيقة، وليس الحسّن. أردت ليلى كما هي، لا كما يمكن أن تبدو.

ضغطت الزرّ. اللقطة الأولى كانت مخيّبة للآمال: عين مغمضة قليلًا، ابتسامة غير كاملة. المحاولة الثانية: وجه متوتّر، كأنني أمثّل الطبيعية بدل أن أكونها. الثالثة: أفضل، لكن لا تزال ليست ما أريد. جاءت اللقطة الخامسة، العاشرة، الخمسون. في كل مرّة كنت أراقب الصورة، أحاول أن أعرف من أرى فيها. هل هي الطفلة من التاسعة؟ هل هي الفتاة التي باعت نفسها بفعالية؟ أم امرأة تحاول الآن أن تعودّ إلى نفسها، ببطء؟

في اللقطة الثانية والستّين، حدث شيء. لم أكن أحاول. كنت مجرّد جالسة هناك، منهكة من كل محاولات الوصول للصورة المثالية، فنسيت أن أكون مثالية. نسيت أن أحسب التفاصيل. جلست فقط، وكنت موجودة، وفي تلك اللحظة بالتحديد، ضغطت الزرّ دون أن أقرّر. كانت الصورة بسيطة: امرأة متعبة، عيناها تحمل كل سنوات الانتظار واليقظة، لكنهما أيضًا تحملان شيئًا آخر: قرار، ربما، أو قبول، شيء بدأ يتحوّل من خوف إلى معرفة.

طبعت الصورة، ووضعتها على حائطي، بجانب مرآتي الكبيرة. ليست صورة جميلة بالمعنى التقليدي. شعري غير مرتّب، وفي منطقة الجبين خط قلق قديم. لكنها صادقة. كانت هذه، أخيرًا، ما أردت: امرأة تنظر إلى الكاميرا دون أن تتظاهر، دون أن تحسب، دون أن تحتفظ بشيء للعودة إليه. امرأة تقول: «أنا هنا. هذا ما أنا عليه.»

في الليالي التي تلت، وقفت أمام هذه الصورة طويلًا. اسألت نفسي إن كانت تلك حقًّا أنا، أم أنها نسخة جديدة بدأت تتشكّل، امرأة أخرى ستحتاج سنوات أخرى لتعرف نفسها. لكنني، هذه المرّة، لم أخفِ الصورة. لم أغطّها بقماش. تركتها معلّقة، ظاهرة، حقيقية، تذكّري كل يوم بأنّ هناك نسخة مني استطاعت، أخيرًا، أن تقف أمام مرآة دون أن تهرب.

قلت له مباشرة: «أخبرتك عن كل الرجال الذين مرّوا. لم أخبرك أبدًا من أنا، بمعزل عنهم.» نظر إليّ بصبره المعتاد، دون أن يستعجل، وسألني: «ومن أنتِ، بمعزل عنهم؟» سؤال بسيط في ظاهره، لكنه أثقل سؤال طُرح عليّ في حياتي، لأنني، ولأول مرّة، أدركت أنني لا أعرف الجواب، لأنني، منذ الغرفة الزرقاء، عرّفت نفسي دائمًا بالنسبة إلى ما فعله بي الآخرون، لا بالنسبة إلى ما أنا عليه بذاتي.

جلست في صمت طويل، أبحث في داخلي عن إجابة لا تبدأ بجملة «هي امرأة تعرّضت لـ» أو «هي امرأة تعلّمت أن». بحثت عن جملة تبدأ بي فقط، بلا تاريخ، بلا صدمة، بلا أحد آخر في الصورة. لم أجد الكثير في البداية. وجدت فقط اسمًا، الاسم الذي أطلقته عليّ أمي حين ولدت، قبل أن يعرف العالم كيف يشوّهني، قبل أن أتعلّم أن أخفيه خلف «أنا» و«هي» في كل حديث عن نفسي.

قلت، بصوت خافت في البداية، ثم أعلى قليلًا: «ليلى.» توقّف الطبيب عن الكتابة، رفع رأسه، وسألني بلطف: «هذا اسمك؟» أومأت برأسي. شعرت بشيء غريب يتحرّك في صدري، شيء بين البكاء والضحك، شيء لم أشعر به منذ زمن طويل جدًّا: أنّ نطق اسمي، بصوت عالٍ، أمام إنسان آخر، كان فعلًا يشبه استعادة أرض احتُلّت منذ أربعة وعشرين عامًا.

فكّرت في كل المرّات التي قدّمت فيها نفسي للآخرين بأسماء أخرى، بأدوار أخرى: المصوّرة، الساخرة، الفتاة التي تعرف قيمتها، المرأة التي لا تحتاج أحدًا. كل هذه الأقنعة، أدركت فجأة، كانت طرقًا لتجنّب قول هذا الاسم البسيط، لأن قوله كان يعني الاعتراف بأنّ هناك إنسانة حقيقية تحت كل تلك الأقنعة، إنسانة يمكن أن تُجرح، لأنها موجودة أصلًا.

سألني الطبيب: «متى كانت آخر مرّة نطق فيها أحد اسمك بمحبّة حقيقية؟» فكّرت طويلًا. تذكّرت أمي وهي تناديني للعشاء في طفولتي، قبل ذلك الصيف. تذكّرت الرجل الذي أحببته وهو يهمس باسمي في لحظة هدوء نادرة. أدركت أن معظم من نادوني باسمي بعد ذلك فعلوا ذلك كوسيلة، لا كاعتراف: ينادونني ليطلبوا شيئًا، لا ليروا شيئًا.

في تلك الليلة، عدت إلى شقّتي، ووقفت أمام المرآة الكبيرة، ونطقت الاسم مرّة أخرى، لنفسي هذه المرّة، بلا شاهد سوى انعكاسي: «ليلى. اسمي ليلى.» لم أقلها بصوت عالٍ منذ عشرين سنة، ربما أكثر. كانت الكلمة تشعر بالغرابة في فمي، كطعام لم أتذوّقه منذ الطفولة، لكنها، رغم غرابتها، كانت الأصدق ممّا قلته لنفسي منذ زمن طويل جدًّا.

الفصل الثاني والعشرون

الصورة الأخيرة

في اليوم التالي، أخرجت كاميرتي، تلك التي استخدمتها آلاف المرّات لتصوير وجوه غريبة في شوارع لا تعرفني، ونصبتها على حامل ثلاثي في زاوية غرفتي، أمام النافذة، حيث يدخل الضوء بزاوية أحبّها دائمًا في عملي، لكنني لم أستخدمها يومًا لنفسي.

وقفت أمام العدسة، أضبط الإضاءة، أعدّل المؤقّت، بحركات آلية اعتدتها في عملي، لكنني، هذه المرّة، شعرت بارتجاف خفيف في يديّ لم أشعر به من قبل خلف الكاميرا. فكّرت في كل الوجوه التي التقطتها عبر السنوات، وجوه غرباء وثقت بي بما يكفي لأخذ لحظة منهم، بينما أنا، طوال هذا الوقت، تجنّبت أن أعطي نفسي اللحظة نفسها.

ضغطت الزرّ. سمعت صوت المؤقّت يعدّ، ثلاثة، اثنين، واحد. لم أبتسم الابتسامة المعتادة التي أرتديها للآخرين، تلك المدروسة، المحسوبة بدقّة لتظهر ثقة لا أشعر بها دائمًا. تركت وجهي كما هو، دون تعليمات لنفسي، دون توجيه، كما أفعل مع الغرباء الذين أصوّرهم حين أطلب منهم أن ينسوا الكاميرا للحظة.

التقطت عشرات الصور في تلك الجلسة، بزوايا مختلفة، بإضاءات مختلفة، وفي كل مرّة كنت أنظر إلى الشاشة الصغيرة بخوف، أبحث عن الصورة «المثالية»، تلك التي تُخفي التعب تحت عينيّ، والخطوط الرفيعة حول فمي، وذلك الشيء غير المحدّد في نظرتي الذي يفضح، لمن يعرف كيف ينظر، كل ما مررت به.

توقّفت عند صورة معيّنة، طويلًا، لأنها ذكّرتني، فجأة ودون مقدّمات، بصورتي القديمة على الشاطئ، تلك التي وجدتها في صندوق أمي قبل أشهر. نفس زاوية الرأس تقريبًا، نفس ميل الكتفين. لم تكن الابتسامة نفسها، بالطبع؛ الابتسامة الآن أثقل، أكثر معرفة، أقلّ براءة. لكنّ شيئًا في العينين كان قد عاد، شيئًا ظننته اختفى للأبد مع تلك الطفلة على الرمل.

في منتصف الجلسة، توقّفت فجأة، وجلست على حافّة السرير، أراجع الصور واحدة تلو الأخرى، وأدركت

في منتصف الجلسة، توقّفت فجأة، وجلست على حافّة السرير، أراجع الصور واحدة تلو الأخرى، وأدركت شيئًا لم أتوقّعه: كنت أبحث عن الكمال في صورة لنفسي، بينما لم أبحث عنه يومًا في صور الآخرين. كنت أطلب منهم دائمًا أن يكونوا حقيقيين، غير مثاليين، صادقين في لحظة ضعفهم، ومع ذلك كنت أطلب من نفسي المستحيل.

اخترت أخيرًا صورة لم تكن الأفضل تقنيًّا: زاوية غير مدروسة، ضوء غير متساوٍ تمامًا، عينان تنظران مباشرة إلى العدسة دون تلك الحماية المعتادة التي أضعها بيني وبين أي كاميرا، حتى كاميرتي أنا. طبعتها، ووضعتها على الحائط بجانب المرآة، لأول مرّة منذ سنوات أرى صورة لنفسي معلّقة في مكان أمرّ به كل يوم. ليست صورة جميلة بالمعنى الذي اعتدت الحكم به على الجمال. لكنها صادقة. وهذا، اكتشفت أخيرًا، يكفي.

الفصل الثالث والعشرون

الرسالة

في أحد الأمسيات، بعد أسابيع من الصورة المعلّقة على الحائط، جلست إلى طاولتي، وأخرجت ورقة وقلمًا، بدل أن أفتح هاتفي وأحدّق في رقمه كعادتي. فكّرت في كل المرّات التي اتّصلت فيها ولم يردّ، وأدركت أنّ ما أحتاجه ليس ردّه، بل أن أقول ما لم أقله يومًا، بصوت واضح، حتى لو لم يسمعه أحد.

كتبت: «إلى الرجل الوحيد الذي لم يمرّ من هنا فقط، بل حاول أن يبقى.» توقّفت، نظرت إلى الجملة طويلًا، ثم تابعت: «أعرف أنك لن تقرأ هذا، وربما هذا أفضل. لأن ما أكتبه ليس رسالة أطلب فيها العودة. هو اعتراف تأخّر أربعة وعشرين عامًا.»

كتبت عن الليلة التي قال فيها «سأنتظر»، وكيف أنني، بدل أن أسمح لنفسي بالإيمان بذلك، اخترت أن أدفعه بعيدًا بجملة قصيرة قاسية. كتبت أنني لم أكن أهرب منه، بل من احتمال أن يكون الحب حقيقيًّا، لأن كل ما عرفته عن القرب، منذ كنت في التاسعة، علّمني أن القرب مقدّمة للأذى، لا للأمان.

كتبت عن الغرفة الزرقاء، للمرة الأولى بكلمات صريحة على ورق، لا في رأسي فقط. لم أصف التفاصيل؛ لم أكن بحاجة لذلك. كتبت فقط: «كان هناك باب أُغلق حين كنت طفلة، ولم أتعلّم بعدها كيف أثق بأن باب أي أحد آخر سيبقى مفتوحًا دون ثمن.» شعرت، وأنا أكتب هذه الجملة، بثقل يخفّ قليلًا عن صدري، وكأن الورقة، بطريقة ما، كانت تحمل عني بعض ما حملته وحدي لعقدين من الزمن.

توقّفت عن الكتابة للحظات، ووضعت القلم، ونظرت من النافذة، أراقب المارّة في الشارع أسفل شقّتي: رجل يعجّل الخطى، امرأة تحمل أكياس تسوّق، طفل يركض خلف كرة. فكّرت أن كل واحد منهم يحمل قصّته الخاصّة، أثقالًا لا أراها، وأن ما يجعلني مختلفة ليس ثقل ما أحمله، بل أنني، أخيرًا، بدأت أضعه على الورق بدل أن أحمله وحدي في صمت.

كتبت أيضًا عن كل الرجال الآخرين، دون أسماء، دون تفاصيل تدين أحدًا سواي: «لم تمرّوا من سريري فقط. مررتم من ثقتي، ومن طفولتي، ومن قدرتي على أن أحبّ دون خوف. لكنني أدركت أخيرًا أن المرور لا يعني الملكية. ما تركتموه ورائكم، لي وحدي أن أقرّر ماذا أفعل به الآن.»

حين انتهيت، أعدت قراءة الصفحات، أربع صفحات كاملة بخطّ يدي المرتجف قليلًا في البداية والثابت في النهاية. فكّرت أن أُرسلها، ثم فكّرت أن أُمزّقها، ثم لم أفعل أيًّا من الأمرين. طويتها ووضعتها في الدرج، بجانب صورتي الجديدة، وأدركت، في تلك اللحظة بالذات، أنني لم أكن أكتب له من الأساس، رغم العنوان في أعلى الصفحة. كنت أكتب لنفسي، لتلك الطفلة التي انتظرت طويلًا أن يسمعها أحد، لأخبرها أخيرًا أنني كنت هنا، طوال الوقت، أسمعها أنا، حتى لو لم يسمعها أحد غيري.

الفصل الرابع والعشرون

النافذة

في كل فصل من هذه القصّة التي عشتها، كانت هناك نافذة عند النهاية. في البداية، كانت نافذة على العالم الذي بدأ يتحطّم. ثم نافذة على الهروب، على كل الطرق التي اخترعتها لأبتعد عن نفسي. ثم نافذة على الوحدة، والبحث عن من يملأ الصمت. ثم نافذة على الرجل الذي أحببته دون أن أصدّق أنني أستحقّ حبّه. أغلقتها في كل مرّة، بحركة يد سريعة، وكأنني أغلق معها بابًا خلف ذكرى لا أريد أن يدخل هواؤها إلى الغرفة التالية. تعلّمت أن الإغلاق أمان، وأن الهواء البارد القادم من الخارج ليس سوى تذكير بأن العالم لا يزال هناك، ينتظر أن يؤذيني مرّة أخرى إن سمحت له بالدخول.

في ذلك المساء، اتّصلت بأمي، دون سبب محدّد، فقط لأسمع صوتها. رنّ الهاتف مرّتين قبل أن تردّ: «حبيبتي؟» كانت تجلس أمام التلفاز، أسمع الموسيقى في الخلفية، صوت أبي يتحرّك في الغرفة الأخرى. سألتني: «هل أنتِ بخير؟» السؤال نفسه الذي تسأله كل مرّة، السؤال الذي اعتدت أن أُجيب عليه بـ «نعم» دون أن أفكّر. هذه المرّة، توقّفت لحظة، ثم قلت: «لست بخير تمامًا، لكنني أحاول.» صمتت، وأنا أتوقّع أن تسأل «لماذا؟» أو «ماذا حدث؟» لكنها، بحكمة امرأة عاشت سنوات في حماية نفسها، قالت: «هذا يكفي، يا صغيرتي. المحاولة تكفي.» لم تسأل عن التفاصيل، ولم أقدّمها. جلسنا معًا، على الخطوط الهاتفية، لا نتحدّث عن أي شيء محدّد، فقط نتنفّس معًا. شيء بيننا تغيّر في تلك المكالمة القصيرة، تصدّع صغير في جدار الصمت القديم، كافٍ ليدخل منه بصيص ضوء.

الليلة، وقفت عند نافذة شقّتي، التي أصبحت، بعد كل هذه السنوات، أقرب ما أملك إلى بيت حقيقي. لم يكن هناك حدث كبير يستدعي هذه الوقفة، لا مكالمة، ولا رسالة، ولا كابوس أيقظني. كان فقط مساء عادي، هادئ بطريقة بدأت أثق بها أخيرًا، بعد أن قضيت حياتي كلها أشكّ في

كل هدوء، أنتظر العاصفة التي أعرف أنها آتية لا محالة.

فتحت النافذة قليلًا، ودخل الهواء البارد، يحمل رائحة المطر الذي سقط قبل ساعات في مكان بعيد. لم أتراجع. لم أشعر برغبة في إغلاقها. وقفت هناك، أتنفّس ذلك الهواء، أشعر ببرودته على وجهي، دون أن أفسّرها كتهديد، دون أن أقرأ فيها نذيرًا لشيء سيئ قادم.

فكّرت في ليلى الطفلة، تلك التي ركضت في البحر بلا خوف، وفي ليلى التي تعلّمت الاختباء في التاسعة، وفي كل النسخ الأخرى منّي التي عشتها عبر السنوات: الساخرة، المكسورة، من باعت جسدها وهي تظنّ أنها تشتري سيطرتها، من هربت من الحبّ الوحيد الذي لم يطلب ثمنًا. كل هذه النسخ، أدركت وأنا أقف عند تلك النافذة، لم تمت. لا تزال تعيش فيّ، طبقة فوق طبقة، لكنها، أخيرًا، لم تعد تتصارع. توقّفت عن الهرب من بعضها البعض.

لا أعرف إن كان هذا هو الشفاء الذي تتحدّث عنه الكتب. لا أعرف إن كنت سأستيقظ غدًا وأجد الخوف قد عاد، لأن الأشياء التي عشتها لا تُشفى بقرار واحد، ولا بنافذة واحدة تُركت مفتوحة. لكنني أعرف شيئًا واحدًا بيقين لم أشعر به من قبل: أنني، الليلة، لست خائفة من الهواء.

فكّرت في كل النساء اللواتي قد يقرأن قصّتي يومًا، إن كتبتها فعلًا. تخيّلت واحدة منهنّ، في مكان ما، تقف عند نافذتها الخاصّة، تحمل صمتها الخاص، وتخاف من هوائها الخاص. تمنّيت، بصدق، أن تصل إليها هذه الكلمات يومًا، لا لتخبرها أن الشفاء سهل أو مضمون، بل لتخبرها أنها ليست وحدها، وأن الباب الذي أُغلق عليها يومًا يمكن أن يُفتح مرّة أخرى، حتى لو استغرق ذلك عمرًا كاملًا.

جلست إلى طاولتي، فتحت دفترًا جديدًا، أبيض تمامًا، وأمسكت القلم. فكّرت طويلًا فيما سأكتبه، في كيف أبدأ قصّة حملتها وحدي لأربعة وعشرين عامًا. تذكّرت تلك الليلة الأولى، حين جلست على حافّة سريري في الثالثة صباحًا، أفكّر أنني قررت أخيرًا أن أتوقّف عن الهرب دون أن أعرف كيف. كتبت، بخطّ ثابت هذه المرّة:

«في الليلة التي قررت فيها أن أتوقّف عن الهرب، اكتشفت أنني لا أعرف كيف.»

توقّفت عن الكتابة. نظرت إلى الجملة على الورق. ابتسمت. لم أخطّط لهذه الابتسامة — لم أرسمها بحساب. كانت حقيقية، بطريقة بسيطة تشعر بها جسدك قبل أن يعرفها عقلك.

عرفت، الآن فقط، كيف أتوقّف عن الهرب. ليس بقرار واحد. بل بكلمات. جملة بعد جملة، كل ما هربت منه طويلًا، حتى تصبح الكلمات، أخيرًا، بيتًا أعيش فيه دون خوف.

في كل نهاية فصل من حياتي، أغلقت النافذة. كانت طريقتي الوحيدة للبقاء. في الظلام، لا يمكن لأحد أن يرى ندوبي. في الظلام، لا يمكن لأحد أن يؤذيني مرّة أخرى. كنت أعرف أن هناك عالمًا خارج تلك الغرفة — رجال، طرق، احتمالات — لكنني تعلّمت، منذ الصغر، أن الخارج ليس آمنًا. أن النافذة المفتوحة دعوة للألم.

الليلة، تركتها مفتوحة. ليس دفعة واحدة، بل ببطء. فتحتها قليلًا، انتظرت أن تسقط السماء. لم تسقط. فتحتها أكثر. الهواء البارد دخل، لكنه لم يقتلني. دخلت أصوات المدينة، ضوء الشارع، صوت الناس يضحكون. كل هذا كنت أخفيته عن نفسي لسنوات.

ليس لأنني أنتظر أحدًا يدخل من تلك النافذة ويأتيني بالنهاية السعيدة. لا أعتقد بهذا. الحياة لا تعطي النهايات السعيدة للأطفال الذين يحملون أسرار أسوأ من حياتهم. لكنني اكتشفت شيئًا آخر: النهاية السعيدة ليست من يأتي ليُنقذني. النهاية السعيدة هي أن أبقى واقفة، بنفسي، دون أن أحطّم نفسي. أن أكتب قصّتي بيدي، دون أن أنتظر أحدًا يكتبها لي.

بل لأنني، أخيرًا، لم أعد خائفة من الهواء البارد. من الضوء. من أن يرى العالم من أنا فعلًا. ليلى. امرأة حملت أثقالًا لم تختر حملها، وحاربت طريقها من التاسعة إلى الآن. امرأة اكتشفت أن البقاء أصعب بكثير من الموت، لكنه أيضًا أكثر قيمة. امرأة تقول، أخيرًا: أنا هنا. أنا موجودة. أنا لست ضحية فقط. أنا امرأة.

جلست إلى طاولتي، أمسكت القلم، فتحت دفترًا جديدًا أبيض تمامًا. كنت ستبدأ بالجملة نفسها التي بدأت بها كل مرّة: «في الليلة التي قررت فيها أن أتوقّف عن الهرب...» لكنني توقّفت. أدركت أن تلك الجملة، مهما كانت صادقة، تنظر للخلف. وأنا الآن لا أريد أن أنظر للخلف. كتبت بدلًا منها: «أنا ليلى، وهذه قصّتي. وهنا يبدأ كل شيء.»

عن المؤلف

محمد الفاضل كاتب مهتمّ بالرواية النفسية والاجتماعية، يكتب عن الصدمة والهوية والبحث عن الذات بعين لا تكتفي بسرد الألم، بل تبحث فيما وراءه.